سيرة

مكتبة ياسمين

سيمون دو بوفوار

موت عذب جداً

ترجمة: كامل العامري

مكتبة ياسمين

سيرة

Author: **Simone de Beauvoir**	اسم المؤلف: سيمون دو بوفوار
Title: **Une mort très douce**	عنوان الكتاب: موت عذب جداً
Translated by: **Kamel Al Amiri**	ترجمة: كامل العامري
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2020**	الطبعة الأولى: **2020**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Editions Gallimard, Paris, 1964

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8000 800 + 964 (0) 790 1919 290	بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas neigh. 102 - 13 Street - Building 141 www.almada-group.com ✉ email: info@almada-group.com
+ 961 706 13017 + 961 175 2616 + 961 175 2617	بيروت: الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول ✉ dar@almada-group.com
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289	دمشق: شارع ترجمة حمداد- متفرع من شارع 29 أيار ✉ al-madabooks@net.sy ص.ب: 8272

مكتبة ياسمين

مقدمة

«موت عذب جداً»

-١-

موت عذب جداً عبارة عن سرد قصصي لسيرة سيمون دي بوفوار (1964) تصف فيها آخر اللحظات التي عاشتها مع والدتها التي كانت تحتضر.

هذا الكتاب، وفقًا لـ (سارتر)، أفضل ما كتبته على الإطلاق. لقد نقلت فرانسواز دي بوفوار (والدة سيمون) إلى المستشفى بعد سقوطها في الحمام. وبسرعة جداً، تم الكشف عن سرطان الأمعاء الدقيقة ويتضح أنه كان سرطانًا واسع النطاق. تمضي كل من سيمون دي بوفوار وشقيقتها بوبيت مدة ثلاثة أشهر تتناوبان إلى جانب والدتهما، وتشهدان لحظاتها الأخيرة.

تستحضر الكاتبة موضوعات القتل الرحيم والإرهاق العلاجي: إنها تعرف أن والدتها محكوم عليها لكنها لا تزال مغلوبة على أمرها، واهنة أمام الأطباء الذين يمارسون طغيانًا على مريضهم الذي لا يمكن تبريره إلا بالشفاء.

تستحضر سيمون الموت، من وجهة نظرها المعروفة، ومن وجهة نظر والدتها المؤمنة. وتعيد النظر في أسرتها والدور الذي لعبته فيها؛ وهي ككاتبة معروفة ومميزة اقتصاديًا: كانت «الابن» بطريقة ما لدعم والدتها مالياً. في هذه الرواية تستحضر ردود أفعال والدتها، المرتبطة جداً بالقيم البورجوازية، أمام عملها وحياتها ككاتبة ملتزمة.

أخيرًا، وكما ترى بوفوار، تراقب ظروف عمل الممرضات وظروف المرضى المعيشية.

ربما قدمت سيمون دي بوفوار نفسها، في هذه الصفحات الصغيرة المئة والستين، إن لم يكن الأفضل عن حياتها، «على الأقل الأكثر سرية». كما يقول بيير هنري سيمون، من الأكاديمية الفرنسية، في مقال له في صحيفة اللوموند.

«إن سيمون دي بوفوار، التي نعلم إخلاصها وشجاعتها، تكشف عن حساسية وحنان. مفرطين» (إميل براديل، المدرسة المحررة – العدد الأول: 1964).

تجري القصة ببرودة وموضوعية، من الخارج؛ إنها تقريباً تشبه تقريراً. ولكن وراء هذا الشعور الواضح، يشعر المرء بالألم الذي يحتويه، ألم قوي جداً لدرجة أن سيمون دي بوفوار نفسها ذهلت به؛ فتلك المرأة التي كانت في البداية «الأم العزيزة الحنون» أصبحت فيما بعد المرأة العدائية التي اضطهدت كل طفولتها، كلتاهما بكتا. وفي مواجهة الموت، استعادت الكاتبة كل رقة أمها. الحنان الذي كانت قادرة على التعبير عنه بشكل سيئ جداً ولكنه كان يعيش دائمًا في قلبها، استحضرت موضوعات ضراوة العلاج والقتل الرحيم من خلال خطوط عاطفية مؤثرة، في محنة هذا الحداد، كانت تدعم سيمون دي بوفوار طالبة فلسفة شابة قابلتها في ذلك الوقت: هي سيلفي لو بون. ظلت طبيعة علاقتهما غير واضحة: هل كانت علاقة بين الأم وابنتها، أم علاقة ودية أو علاقة رومانسية؟ وقد أعلنت في «كل شيء قيل وانتهى» أنها تشبه تلك التي كانت

تجمعها بزازا قبل خمسين عامًا. أصبحت سيلفي لو بون ابنتها بالتبني ووريثة أعمالها الأدبية وجميع ممتلكاتها، وزازا تلك هي إليزابيث لاكوان، المعروفة باسم زازا، التي سرعان ما أصبحت أفضل صديقة لها على الرغم من أن سيمون كانت تعاني في صمت من عدم المعاملة بالمثل، ولكنها عندما توفيت حزنت عليها كثيرًا.

-١١-

هذه الذكريات هي في الحقيقة ذكريات «فتاة صغيرة». كل شيء في مكانه والعنوان لا يمكن أن يكون أكثر من هذه الدقة. الأم، «جميلة كصورة، في ثوبها الأخضر الرقيق»؛ الأب الذي «لم يكن له دور واضح المعالم»؛ وبعد ذلك، سارتر، «الذي استجاب بالضبط لرغباتي التي دامت خمسة عشر عامًا: لقد كان هو الشخص المزدوج الذي وجدت فيه، مديات التوهج، وكل ما لدي من هوس. (...) عندما تركته في بداية أغسطس، عرفت أنه لن يخرج من حياتي مرة أخرى».

بالطبع، تملي الكتابة غالبًا ما كان يشعر به المرء بأدنى ثقة. لكن كان هذا الطريق راسخاً. قلت لنفسي «على أي حال»، يوماً ما سأواجه الحقيقة ولن أموت: الفكرة هي أن هناك عمراً تقتل فيه الحقيقة عقلانيتي».

كل شيء هناك، الشخصيات والأهداف والأحداث. وما تبقى - الحياة التي لم «تستسلم» - ليس أكثر من مسألة انعطافات. وفي النهاية، سيتعين عليها أن ترافق وفاة والدتها ثم وفاة سارتر مرة أخرى، ولكن بعد ذلك وحدها من تكتب عنهما كتابين رائعين للغاية يتحدثان عن هذه الأرواح

حتى النهاية.

«موت عذب جداً»، جل ما ترويه هو في مواجهة موت الأم. وفي هذا النص، يكشف المرض يوماً بعد يوم، عن مشاعر أخرى؛ ويكشف عن أن الجسد يتحول إلى مجرد جسد: «بثوب نومها المفتوح، كان يظهر بطنها المتفتت للعيان بلا مبالاة، المتموج بالتجاعيد الصغيرة، أصلع العانة. (...) هيكل بانس لا حول له ولا قوة أعزل، تتلاعب به الأيدي المحترفة» بغض النظر عن المكان الذي نتلمّسه، نعاني من الذاكرة، والمرض ينشّط الذكريات، ويخلق صورة مثالية للمرأة الصموت. إنها تفرز بشكل خاص الموظفين والفنيين الذين يأتون فقط في النهاية، والأقارب الذين يحاولون إعطاء معنى لحياتهم التي ما تزال توحدهم: «هل تريدون أن تتركوا هذا في معدتها؟ قال لي (ن) بلهجة عدوانية (...) عند الفجر، لم يكن لديها بالكاد أربع ساعات من الحياة... ولم أكن أجرؤ على أن أسأله لماذا؟» ومع ذلك، فإن هذه الكلمات غالبًا ما تستخدم من قبل مقدمي الرعاية التي ستكون بمنزلة المواساة: «لكن سيدتي، أجابت الممرضة الخافرة، أؤكد لك أنه كان موتًا عذباً للغاية.»

(مراسم الوداع) وهو كتابها الآخر عبارة عن يوميات امتدت إلى عشر سنوات من 1970 إلى 15 أبريل 1980، وهو تاريخ وفاة سارتر. وهذه مرافقة أخرى، أكثر حساسية لضوضاء العالم في بعض الأحيان، ولكنها تستحضر فيه انهيار التقارب الفكري والعاطفي بشكل كامل. وصف الغياب الذي يجبر المرء على «أن يدرك الهشاشة التي لم أكن أعرفها في الواقع»؛ والخلاف بين الجسد ومذاق الحياة في سارتر الذي لا يأخذ في

مكتبة ياسمين

الحسبان الوصفات الطبية، ويتفق على تأجيل التوريات» لكن وجعه كان بفقدان بصره أيضًا، وهذا «عنصر الحرج الانعكاسي الذي يتواجد باستمرار عند قراءة نص بعينيه». منذ ذلك الحين، «أنا لست ميتًا، في الحقيقة: أنا آكل وأشرب؛ لكنني ميت من أن منجزي قد انتهى...» كان هذا الكتاب هو آخر ما كتبته سيمون دو بوفوار، وهو أول كتاب لم يقرأه سارتر قبل طباعته. وينتهي مثلما كانت تبدأ المذكرات بالعزلة الممتدة والمكانة العالية: «موته يفصلنا. موتي لن يجمعنا. وهكذا؛ من الجميل بالفعل أن حياتنا تمكنت من التوافق مدة طويلة». دعنا نقول فقط، إن هذه الشهادات، غنية للغاية بحيث لا يمكن تلخيصها، ومزعجة. ولا غنى عنها لمقدمي الرعاية. لكن كل شخص، يمكن القول كما قال ريلكه: «يحمل موته في داخله، مثلما تحمل الثمرة نواتها».

كامل عويد العامري

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

لا تذهب بهدوء في تلك الليلة الطيبة

يجب أن تحترق الشيخوخة وتهوي في نهاية اليوم؛

الغضب، الغضب ضد موت الضوء...

-ديلان توماس

-1-

الخميس 24 أكتوبر 1963، في الساعة الرابعة بعد الظهر، كنت في روما، في غرفتي في فندق مينيرفا. كان عليّ العودة إلى المنزل في اليوم التالي بالطائرة، فأعددت الأوراق عندما رن جرس الهاتف. اتصل بي بوست من باريس، قال لي: «لقد تعرضت والدتك لحادث». ظننت: أن سيارة صدمتها. ربما كانت تصعد الرصيف بصعوبة من الطريق العام، وهي تتكئ على عصاها، فصدمتها السيارة. قال لي بوست: سقطت في الحمام، فانكسر عنق عظم الفخذ». وبوست يسكن في المبنى ذاته. في اليوم السابق، وحوالي الساعة العاشرة مساء، صعد الدرج مع أولغا، ولاحظا ثلاثة أشخاص سبقوهما: سيدة وشخصان. قالت السيدة: «الطابق الثاني ونصف» هل حدث شيء ما لمدام دي بوفوار؟ نعم. سقوط. كانت تزحف لمدة ساعتين على الأرض قبل أن تصل إلى الهاتف، فطلبت من صديقتها السيدة تارديو، أن تكسر الباب. رافق كل من بوست وأولغا المجموعة إلى الشقة فوجدوا أمي مستلقية على الأرض في ردائها المخملي الأحمر. الدكتورة لاكروا التي تسكن في البيت شخّصت حالتها، فأشارت إلى أن هناك تمزقاً في عنق عظم الفخذ، فنقلت إلى قسم الطوارئ في مستشفى بوسيكو. أمضت أمي الليل في غرفة مشتركة. «لكنني سآخذها للعيادة C» أخبرني بوست. «هذا هو المكان الذي يعمل فيه أحد أفضل جراحي العظام ألا وهو البروفيسور B، لقد احتجّت، كانت خائفة من أن يُكلّفك هذا الكثير. لكنني أقنعتها في نهاية

مكتبة ياسمين

المطاف».

أمي، يا لها من مسكينة! تناولت الغداء معها عندما عدت من موسكو قبل خمسة أسابيع؛ وكالعادة بدت مريضة. كان ذلك منذ وقت ليس ببعيد، عندما كانت تتباهى بأنها أصغر من عمرها الفعلي، أما الآن فمن المستحيل أن أكون مُخطئة: امرأة في السابعة والسبعين، منهكة جداً. لقد تفاقم عندها التهاب مفاصل الوركين، الذي بدأ بعد الحرب، عامًا بعد عام، على الرغم من العلاج والتدليك في حمامات *إيكس لي بان*: كانت تستغرق من الوقت ساعة تقريباً لتسير حول كتلة من البيوت. تتألم وتنام بشكل سيئ على الرغم من أقراص الأسبرين الستة التي تتناولها كل يوم.

خلال السنتين أو الثلاث الماضية، وبخاصة منذ الشتاء الماضي، كنت أرى تلك الهالات البنفسجية دائمًا، وأنفها المقروص، وخديها المحفورين. ولكن لا شيء يوحي بخطر ما، وكما قال طبيبها د. D: مجرد اضطرابات في الكبد وكسل معوي. فوصف لها بعض الأدوية، ومربى التمر الهندي ضد الإمساك. لم أكن مندهشة في ذلك اليوم لأنها شعرت بأنها «متوعكة». ولكن ما آلمني هو أنها أمضت صيفًا سيئًا. كان من الممكن أن تقضي إجازتها في فندق أو في دير يقبل بالنزلاء. لكنها كانت تتوقع أن تدعى، كما هو الحال في كل عام، إلى بلدة ميرينياك، من قبل قريبتي جين، وحيث كانت تعيش أختي. كلتاهما كان لديهما من المشاكل ما يمنعهما. فبقيت خاوية في باريس، حيث كان الجو ممطراً. قالت لي: «أما أنا، التي لم أكن أشعر بالضيق، فقد اسودت الدنيا في عيني». ولحسن الحظ، بعد فترة وجيزة من زيارتي،

مكتبة ياسمين

استقبلتها أختي في الألزاس لمدة أسبوعين. أما الآن فأصدقاؤها كانوا في باريس، وأنا كنت في طريقي عائدة إليها: من دون هذا الكسر، لكنت وجدتها في حالة متجددة. كان قلبها سليماً تمامًا، وهي بعنفوان امرأة شابة: لم يساورني الشك على الإطلاق أن يقع لها حادث كهذا.

اتصلت بها في حوالي السادسة في العيادة. وأخبرتها بعودتي، وزيارتي. فردت بصوت واهن. فأخذ البروفيسور B. جهاز الهاتف: سنجري لها العملية صباح السبت.

«تركتني شهرين من دون حتى رسالة!» قالت لي عندما اقتربت من سريرها، فاعترضت وقلت لها: لقد كنا التقينا مرة أخرى، وكنت قد كتبت لك من روما. استمعت إليَّ غير مصدقة. كانت جبهتها ساخنة، ويداها كانتا تحترقان؛ وفمها ملتويًا قليلًا، بالكاد تتكلم. كانت هناك غشاوة في رأسها. هل كان ذلك نتيجة تأثير الصدمة؟ أم على العكس، أن سقوطها كان سببه هجومًا صغيرًا؟

كانت تعاني من التشنج دائمًا (لا، ليس دائمًا، ولكن من مدة طويلة. منذ متى؟) كانت ترمش، فيرتفع حاجباها، ويتجعد جبينها. وخلال زيارتي لها، لم يتوقف هذا الهياج للحظة واحدة. وعندما سقط الحاجبان، كانت جفونها الناعمة والمقوسة، تغطي حدقتيها بالكامل. جاء الطبيب المساعد ل، إلى هنا: كانت العملية عديمة الفائدة، فعظم الفخذ لم يتحرك، ثلاثة أشهر من الراحة، وسيتعافى. بدت أمي مرتاحة. حكت، في حالة مرتبكة: جهودها للوصول إلى الهاتف، وألمها. وطيبة بوست وأولغا. لقد جاءا بها إلى مستشفى

بوسيكو برداء البيت، من دون أي أمتعة. وفي اليوم التالي جلبت لها أولغا بعض أدوات الحمام، وبعض الكولونيا، وثوبًا جميلًا داخليًا من الصوف الأبيض. وردًا على شكرها، أجابت أولغا: «ولكن، سيدتي، هذا بدافع من المودة.» فأجابتني أمي مرارًا وتكرارًا بهيئة حالم مقتنع: «قالت لي إنه بدافع من المودة.»

أخبرتني أولغا في المساء. «لقد بدت مرتبكة للغاية للإزعاج الذي تسببه، فهي ممتنة بولهٍ لما كنا نفعله لها: كانت حالتها تمزق القلب». قالت لي، باستنكار، عن الطبيب D فيكسي الذي ناشدته الدكتورة لاكروا، فرفض الذهاب لمعاينة أمي في مستشفى بوسيكو يوم الخميس. وقالت لي أولغا «لقد بقيت معلقة على الهاتف لمدة عشرين دقيقة، بعد هذه الصدمة، بعد ليلتها في المستشفى، كانت والدتك بحاجة إلى الراحة من قبل طبيبها المعتاد. لكن لم يحدث لها أيّ من هذا» لم يعتقد بوست أن أمي أصيبت بسكتة دماغية عندما أخذها، كانت تائهة إلى حد ما، لكنها صافية الذهن. غير أنه كان يشكك في أنها ستتعافى في غضون ثلاثة أشهر: فتمزق عنق الفخذ ليس خطيرًا في حد ذاته؛ ولكن عدم الحركة لمدة طويلة تسبب قروحًا لا تشفى عند كبار السن. فالاستلقاء يجعل الرئتين متعبتين: يصاب المريض بنزلة صدرية تقضي عليه. كنت أمزح، فعلى الرغم من عجزها، كانت أمي قوية. وعلى العموم، كانت كبيرة بما يكفي لمواجهة الموت.

لقد حذر بوست شقيقتي التي تحدثت معها طويلًا على الهاتف: «توقعت هذا!» قالت لي. في الأثناء، وجدت أمي قد بلغت من الشيخوخة

مكتبة ياسمين

وطرًا، ضعيفة جداً، لدرجة أنها أخبرت ليونيل: «لن تصمد حتى الشتاء». وذات ليلة كانت أمي تعاني من ألم شديد في البطن: طلبت نقلها إلى المستشفى لكنها في الصباح كانت بخير. وعندما أعادوها بالسيارة، «كانت مسرورة، وسعيدة». كما قالت – من خلال إقامتها، استعادت القوة والبهجة – في منتصف أكتوبر/تشرين الأول، ومع ذلك، قبل حوالي عشرة أيام من الحادث، اتصلت فرانسين دياتو بشقيقتي: «منذ قليل كنت أتناول الغداء في منزل والدتك. فوجدتها مريضة جداً، وإنني أنبهك إلى ذلك.» جاءت شقيقتي إلى باريس على الفور تحت ذريعة زائفة فاصطحبت أمي إلى طبيب الأشعة. وبعد فحص روتيني قال طبيبها بشكل قاطع: «ليس هناك ما يدعو إلى القلق. نوع من الكيس قد يكون في الأمعاء، كيس برازي، مما يجعل الإخلاء صعبًا. ثم إن أمك تأكل قليلًا جداً، وهذا يمكن أن يؤدي إلى حالات الضعف: لكنها ليست في خطر.» ونصح أمي أن تأكل بشكل أفضل وأوصى لها بالعلاجات الجديدة والحيوية للغاية. قالت لي بوبيت: «رغم ذلك، كنت قلقة». «توسلت أمي أن ترافقها ممرضة خافرة في الليل. ولكنها لم ترغب أبدًا: امرأة غير معروفة تنام في غرفتها، لم تستطع تحمل هذه الفكرة.» اتفقت أنا وبوبيت على أن تأتي إلى باريس بعد أسبوعين في الوقت الذي كنت فيه أنوي السفر إلى براغ.

في اليوم التالي، كان فم أمي لا يزال مشوهًا، ونطقها مرتبكًا؛ وجفونها الطويلة منسدلة تغطي عينيها، وحاجباها يرتجفان. أما ذراعها اليمنى، فقد انكسرت قبل عشرين عامًا عندما سقطت من

دراجتها، وقد عولجت بشكل سيئ؛ وقد أصاب سقوطها الأخير ذراعها اليسرى؛ وهي بالكاد تستطيع تحريكهما. ولحسن الحظ، كانت تعالج بعناية فائقة. فكانت غرفتها تطل على الحديقة بعيدًا عن ضوضاء الشارع، كما تم نقل السرير، ووضعه وترتيبه على طول الجدار الموازي للنافذة، بحيث يكون الهاتف، المثبت على الجدار، في متناول يدها. والوساند تسند جذعها العلوي، فكانت تجلس بدلًا من أن تستلقي: لن تتعب رئتاها. ويتصل فراشها الهوائي بجهاز كهرباني يهتز فيدلكها حتى يتم تجنب تقرحات الفراش. وكان طبيب العلاج الطبيعي، يدلك ساقيها كل صباح. ويبدو أن المخاطر التي أشار إليها بوست قد جرى تفاديها. قالت لي أمي بصوتها النائم إلى حد ما: إن الخادمة كانت تقطّع لها اللحم، وتساعدها على تناول الطعام، وإن الوجبات كانت ممتازة. بينما كانوا في مستشفى بوسيكو يقدمون لها السجق بالتفاح! «سجق! للمرضى!» كانت تتحدث أكثر من اليوم السابق. لقد عاشت ساعتين من الألم وهي تجر نفسها على الأرض متسائلة إن كان بإمكانها الإمساك بأسلاك الهاتف وسحبه إليها، «ذات يوم، قلت للسيدة مارشاند، التي تعيش وحدها، هي أيضًا: لحسن الحظ، يوجد هاتف. فأجابتني، وعليك أن تكوني قادرة على الوصول إليه.» وفي نبرة محببة، كررت أمي هذه الكلمات الأخيرة عدة مرات؛ وأضافت: «لو لم أكن قد وصلت إليه، لكنت قد انتهيت.»

هل كان بإمكانها أن تصرخ بصوت عال بما فيه الكفاية لكي تُسمع؟ لا، لا أعتقد ذلك. كانت أختي محنتها، وهي التي تؤمن بالجنة، لكن على الرغم

من عمرها، وعجزها، ووعكتها، كانت متعلقة بشدة بالأرض وتشعر برعب حيواني من الموت. وروت لشقيقتي عن الكابوس الذي يراودها في أغلب الأحيان: «يلاحقني، فأركض، وأركض، فأصطدم بجدار؛ يجب أن أقفز ذلك الجدار، ولا أعرف ما خلفه؛ أنا خائفة.» وقالت لها أيضًا: «الموت نفسه لا يخيفني: أنا أخاف من القفز.» وبينما كانت تزحف على الأرض ظنت أن الوقت قد حان للقفز فسألتها: «لا بد أنك قد آذيت نفسك بشدة عندما سقطت؟»

– كلا. أنا لا أتذكر. لم أتألم حتى.

– إذن فهي قد فقدت الوعي، كما كنت أظن.

كانت تتذكر إحساسها بالدوار؛ وأضافت أنه قبل بضعة أيام، وبعد أن تناولت أحد أدويتها الجديدة، شعرت بأن ساقيها تنزلقان: كان لديها الوقت الكافي للاستلقاء على أريكتها. نظرتُ بريبة إلى الزجاجات التي أحضرتها قريبتنا الشابة مارت كوردنييه من منزلها – مع مختلف الأشياء الأخرى – كانت تريد مواصلة هذا العلاج: هل كان مناسبًا؟

جاء البروفيسور B لرؤيتها في نهاية اليوم، وتبعته في الممر، قال لي إنه بمجرد أن تتعافى، لن تكون أمي أسوأ من ذي قبل: يمكنها العودة إلى حياتها الاعتيادية، ألمْ يعتقد أنها تشعر بالإغماء؟ لم يفكر في ذلك. وبدا مرتبكًا عندما أخبرته بأنها تعاني من اضطرابات معوية. وكان بوسيكو قد أشار إلى تمزق في عنق عظمة الفخذ وتوقف هناك. وسيخضعها للفحص من قبل طبيب الطب العام.

قلت لأمي «سوف تمشين تمامًا كما كنت من

قبل»، يمكنك العودة إلى حياتك».

– «آه! لن أضع قدمي في هذه الشقة مرة أخرى لا أريد رؤيتها ثانية أبدًا. من أجل أي شيء في العالم!» هذه الشقة: كانت فخورة بها جداً! وقد كرهت تلك التي في شارع رين التي شاخ فيها والدي وأصبح مصابًا بوسواس المرض، كانت مليئة بمآثر مزاجه السيئ. بعد وفاته – تبعته جدتي بعد وقت قصير – أرادت أن تنفصل عن ذكرياتها. قبل سنوات، انتقلت إحدى صديقاتها إلى استوديو، وكانت أمي مبهورة بهذه الحداثة. وللأسباب التي نعرفها، فكان من السهل العثور على مأوى في 42، يمكن لها أن تحقق حلمها: استأجرت استوديو برواق خارجي في شارع بلومت. باعت المكتب الأسود على شكل الكمثرى، وغرفة طعام من طراز هنري الثاني، وسرير الزوجية، والبيانو الكبير، واحتفظت بالأثاث الآخر وقطعة من سجادة حمراء قديمة. علقت لوحات شقيقتي على الجدران. وفي غرفتها وضعت أريكة. كانت تصعد وتنزل السلالم الداخلية بنشاط. في الحقيقة، أنا لم أجد هذا المكان مريحا جداً... فهو يقع في الطابق الثاني، ويدخل إليه القليل من الضوء على الرغم من النوافذ الكبيرة. في الغرف العلوية – غرفة نوم ومطبخ وحمام – كان الظلام مخيمًا دائمًا. هذا هو المكان الذي كانت أمي تقف فيه بدءًا بكل خطوة كانت تخطوها على الدرج حتى تنتزع منها أنّة. وفي خلال عشرين عامًا، أصبحت الجدران، والأثاث، والسجاد، وكل شيء صار متسخًا ومهدمًا. وعندما تغير مالك المبنى في عام 1960 فكرت أمي في الاعتزال والذهاب إلى دار رعاية المسنين، شعرت بأنها مهددة بالإخلاء. فلم تجد شيئًا مناسبًا

لتقنعه به، ومن ثم كانت مرتبطة بمنزلها. بعد أن علمنا أنه ليس لدينا الحق في إبعادها عنه، فقد بقيت في شارع بلومت. لكن الآن، مضيت أنا وصديقاتها، نبحث لها عن منزل تقاعد مقبول تستقر فيه بمجرد أن تشفى: قلت لها: «لن تعودي أبدًا إلى شارع بلومت، أعدك بذلك».

وفي يوم الأحد كانت عيناها لا تزالان نصف مغمضتين، وذاكرتها هامدة، كانت الكلمات تخرج من فمها تتقطر كالقطرات. وصفت لي «محنتها» مرة أخرى. هنالك شيء ما زال يواسيها: وهو أننا نقلناها إلى هذه العيادة، التي بالغت في تقدير قيمتها. «في مستشفى بوسيكو، كانوا على وشك أن يجروا لي عملية بالأمس! هنا، يبدو أن هذه هي أفضل عيادة في باريس.» وأضافت: أن دواعي الموافقة كانت كاملة بالنسبة لها فقط إذا اقترنت بإدانة، مشيرة إلى مؤسسة مجاورة: «إنها أفضل بكثير من عيادة G. لقد قيل لي إن عيادة G ليست جيدة على الإطلاق!».

قالت لي في يوم الإثنين: «لم أستطع النوم على ما يرام منذ مدة طويلة». وقد استعادت وجهها الطبيعي، وصوتها الواضح، وعينيها المبصرتين. كانت ذاكرتها على ما يرام. «علينا أن نرسل الزهور إلى الدكتورة لاكروا.» فوعدتها أن أتكفل بذلك. «والمساعدون؟ ألا ينبغي لنا أن نعطيهم شيئًا ما؟ لقد أزعجتهم.» لقد واجهت صعوبة في ثنيها عن ذلك. استندت إلى وسادتها، وحدقت في عينيّ وقالت لي بشكل حاسم: «انظري، أنا مخدوعة. لقد تعبت كثيرًا، ونفدت جميع وسائلي. لم أكن أريد أن أعترف بأنني كنت كبيرة في السن. ولكن ينبغي مواجهة ذلك؛ في غضون أيام قليلة، أنا في

مكتبة ياسمين

السابعة والسبعين من العمر، وهذا عمر كبير. يجب أن أرتب نفسي وفقًا لذلك سأقلب الصفحة».

كنت أنظر إليها بإعجاب. فقد كانت ولمدة طويلة تصرّ على الاعتقاد أنها في ريعان الشباب. وذات يوم أجابت بصوت غاضب على جملة خرقاء لصهرها: «أعرف، أنني كبيرة السن، وهو أمر مزعج للغاية بالنسبة إلي: لا أريد من أحد أن يذكرني بذلك.» وفجأة، وهي تخرج من الغشاوة التي كانت تطوف فيها لمدة ثلاثة أيام، وجدت قوة المواجهة، بوضوح وحزم، وهي في الثامنة والسبعين. «سأقلب صفحة.»

لقد قلبتِ الصفحة بعد وفاة والدي بشجاعة مذهلة. شعرت بالحزن الشديد عليه. لكنها لم تتورط في ماضيه. لقد استفادت من حريتها المستعادة في إعادة بناء كيانها وفقًا لمزاجها. فأبي لم يترك لها فلسًا واحدًا وهي في الرابعة والخمسين. اجتازت الامتحانات، وأنهت عددًا من دورات التدريب، وحصلت على شهادة تسمح لها بالعمل كمساعدة أمينة مكتبة في خدمات الصليب الأحمر. تعلمت ركوب الدراجة للذهاب إلى مكتبها. وبعد الحرب، خططت للقيام بالخياطة المنزلية. فوجدت نفسي قادرة على مساعدتها. لكن الكسل لا يناسبها. كانت حريصة على أن تعيش حياتها أخيرًا كما يحلو لها، فابتكرت مجموعة من الأنشطة لنفسها. لقد انشغلت كمتطوعة في مكتبة دار للوقاية، بالقرب من باريس، ثم في نادٍ كاثوليكي في حيها. كانت تحب التعامل مع الكتب، تجليدها وتصنيفها وحفظ السجلات وتقديم النصح للقراء. كانت تدرس الألمانية والإيطالية وتنمي لغتها الإنجليزية. وتعمل مطرزة

في المعامل، وتشارك في المبيعات الخيرية، وتحضر المؤتمرات. وتكوّن العديد من الأصدقاء الجدد؛ كما أنها أعادت وشائج العلاقات القديمة وتواصلت مع الأقارب الذين أبعدتهم كآبة والدي. تجمعهم بطيبة خاطر في الاستوديو الخاص بها. وتمكنت أخيرًا من إشباع إحدى رغباتها العنيدة: السفر. كانت تكافح سيرًا على الأقدام ضد تصلب ساقيها. ذهبت لرؤية أختي في فيينا، وفي ميلان. وفي الصيف، كانت تتمشى في شوارع فلورنسا وروما. زارت المتاحف في بلجيكا وهولندا. ومؤخرًا، شُلّت تقريباً، فتخلت عن طواف العالم. لكن عندما كان الأصدقاء وأبناء العمومة يدعونها إلى الريف أو إلى إحدى المقاطعات، لم يوقفها شيء: لم تتردد في أن يشدها المفتش لتستقل القطار. كانت سعادتها الكبرى في التنقل بالسيارة. وفي الآونة الأخيرة رافقتها ابنة أختها، كاترين، إلى ميرينياك، في الليل بسيارة نوع ستروين: لمسافة أكثر من 450 كم. كانت تترجل من السيارة طازجة كزهرة الأقحوان.

كانت تدهشني حيويتها وأحترم بسالتها. ولكن لماذا كانت تنطق بالكلمات التي تجمدني؟ بمجرد أن نستأنف الكلام؟ قالت لي وهي تستحضر ليلتها في بوسيكو: «النساء من عامة الناس، تعرفين كيف كنّ: ينتحبن». «الممرضات في المستشفيات يعملن من أجل المال فقط. لذلك...» كانت عبارات روتينية، آلية مثل التنفس، ولكن على الرغم من ذلك كان وعيها هو الذي يبث الحياة في هذه العبارات: من المستحيل أن نسمعها من دون إحراج. ولقد شعرتُ بالحزن بسبب هذا التباين بين حقيقة جسدها المعذب والهراء الذي كان محشوًا

مكتبة ياسمين

في رأسها.

اقترب اختصاصي العلاج الطبيعي من السرير، وسحب الغطاء، وأمسك بساق أمي اليسرى: كان ثوب نومها مفتوحًا، فأظهرت بطنها المتفتت، المجعد بتجاعيد صغيرة، وعانتها الصلعاء. غير مبالية، فقالت بنظرة مفاجئة: «لم أعد أشعر بأي خجل» قلت لها «أنت على حق،». لكنني أدرت ظهري وانغمست أتأمل الحديقة. عندما رأيت جنس أمي، صُدمت، لم تكن هناك أي هيئة في الأقل بالنسبة لي – لم يكن له وجود أكثر من ذلك. عندما كنت طفلة، كنت أحبه. وعندما أصبحت مراهقة، ألهمني اشمئزازًا مضطربًا؛ إنه لأمر مألوف، إنني وجدت من الطبيعي أن يكون قد حافظ على هذه الطبيعة المزدوجة البغيضة والمقدسة: من المحرّمات. وعلى الرغم من ذلك، دهشتُ من عنف استيائي. فقد أدت موافقة أمي المتسرعة إلى أن جعلت الأمر أكثر سوءًا؛ فكانت قد تخلت عن المحظورات والتعليمات التي اضطهدتها طوال حياتها؛ وقد أيدتها أنا على ذلك. على أية حال، هذا الجسد، تقلص فجأة بهذه الاستقالة ليكون جسدًا فقط، لم يكن يختلف عن جثة إلاّ قليلًا: هيكل مسكين لا حول له ولا قوة، تتلمسه، وتتفحصه أيادٍ محترفة، حيث لا تبدو الحياة تدب فيه إلاّ من خلال خموده المتبلد. بالنسبة لي، كانت أمي موجودة دائمًا وأنا لم أفكر بجدية قط أنني سوف أراها تختفي في يوم قريب. كانت نهايتها، مثل ولادتها، في زمن أسطوري. عندما كنت أفكر في نفسي: إنها كبيرة بما يكفي لتموت، كانت كلمات فارغة، مثل العديد من الكلمات. لأول مرة، رأيت فيها جثة مؤجلة.

في صباح اليوم التالي، ذهبت لشراء قمصان النوم التي طلبتها الممرضات: قمصان قصيرة، وإلاّ فإن التجاعيد تتشكل تحت الأرداف وتسبب التقرحات.

سألتني البائعات «هل تريدين بعض الدمى الصغيرة؟ قمصان دمية طفل؟ تفحصت ملابس داخلية تافهة لمثل هذه المسميات مع فروق طفيفة، في أنها مصنوعة لأجساد شابة ومبتهجة.

كان يومًا خريفيًا جميلاً، بسماء زرقاء: كنت أسير عبر عالم رصاصي اللون فأدركت أن حادث والدتي قد أصابني أكثر بكثير مما توقعت. ولم أكن أعرف السبب. كان قد اقتلعها من إطارها، ومن دورها، من الصور المتجمدة التي سجنتها أنا فيها. تعرفت عليها في ذلك السرير طريحة الفراش، لكنني لم أكن أعرف الشفقة أو نوع الحيرة التي أثارتها في داخلي فانتهى بي الأمر أن أتخذ القرار بشأن القمصان (بالكامل تقريباً) الوردية بنقط بيض.

جاء الدكتور T، الذي كان مسؤولًا عن مراقبة حالة أمي العامة، لرؤيتها أثناء زيارتي. وخاطبها: يبدو أنك تأكلين قليلًا جداً؟

– في هذا الصيف، كنت أشعر بالكآبة. لم تكن لدي الشجاعة لتناول الطعام.

– هل كان الطبخ يشغل بالك؟

– كنت أعد أطباقًا شهية، ومن ثم لم ألمسها.

– آه! إذن، لم يكن الكسل، هل كنت تعدين أطباقًا شهية؟

ركزت أمي: «في إحدى المرات صنعت نفيخة

بالجبن: بعد ملعقتين، انتهى الأمر».

– فقال الطبيب متعاطفًا وهو يبتسم – «فهمت».

كان كل من الدكتور L، والبروفيسور B، والدكتور T متأنقًا في ملبسه، كانوا نظيفين، وهم ينكبون على هذه المرأة العجوز شعثاء الشعر، مذعورة. لقد أدركت هذه الأهمية العقيمة: ألا وهي أهمية قضاة الجنايات في مواجهة متهم في دوامة. «هل كنت تطبخ طعامًا شهيًا؟». لم تكن هناك حاجة للابتسام عندما كانت أمي تتساءل بثقة حسن النية..... وبهذا الحق قال لي B: «يمكنها العودة *لحياتها البسيطة*»؟ كنت أتحدى تدابيره.

عندما كانت هذه النخبة تتحدث بلسان أمي، كنت أنهض منتشية، لكني شعرت بالتضامن مع المعاقة المسمرة على هذا السرير التي تكافح من أجل تقويض الشلل والموت.

من ناحية أخرى، كنت أتعاطف مع الممرضات. فيما يتعلق باهتمامهن بمريضهن من خلال تلقائية الأعمال المرهقة، بسببه يشعرن بالمذلة، ويشعرن بالاشمئزاز فيما يعود إليهنّ، هذا الاهتمام الذي يكن له، له مظهر الصداقة في الأقل. فالآنسة لوران شابة، جميلة، كفؤة، وهي اختصاصية بالعلاج الطبيعي، عرفت كيف تشجع أمي، وتزرع فيها الثقة، وتخفف من آلامها، من دون الاستعلاء عليها.

قال الدكتور T.: «في الغد سنصور معدتك بالأشعة السينية». فاهتاجت أمي: «يعني ستجعلونني أبتلع هذا الدواء الكريه الغاية».

ليس بهذا السوء – أوه! إذًا!» وعندما كانت وحدها معي، شكت: «أنت لا تعرفين مدى سوء هذا الدواء! مذاقه كريه! – لا تفكري في ذلك مسبقًا.» لكنها لم تستطع التفكير في أي شيء آخر. منذ دخولها العيادة، وكان الطعام مصدر قلقها الرئيس. لقد فاجأني قلقها الطفولي، وعلى أية حال لقد تحمّلتِ الكثير من الأحزان والآلام من دون تصنع. هل كان الخوف من دواء بغيض يخفي قلقًا أعمق؟ في هذه اللحظة لم أسأل نفسي.

لقد مرت جلسة الأشعة السينية – للمعدة والرئتين – من دون عقبة تذكر، وكما قيل لي في اليوم التالي: لم يكن هناك أي شيء غير اعتيادي. كان وجهها هادئاً وهي ترتدي قميصاً ورديا بنقط بيض وثوبًا داخليًا أعارته لها أولغا، بينما كان شعرها يتجمع في ضفيرة كبيرة، لم تعد أمي تبدو مريضة. لقد استعادت استخدام ذراعها اليسرى ففتحت صحيفة، وفتحت كتابًا، أجابت على الهاتف من دون مساعدة. الأربعاء. الخميس. الجمعة. السبت. قامت بحل ألغاز الكلمات المتقاطعة، وقرأت كتابًا عن فولتير العاشق والوقائع التي يروي فيها جان دي ليري عن بعثته إلى البرازيل؛ كانت تتصفح صحيفة لوفيغارو، وفرانس سوار. كنت أجيء كل صباح؛ ولم أمكث سوى ساعة أو ساعتين؛ ولم ترغب في إبقائي أكثر من ذلك؛ كانت تستقبل زوارًا عديدين بل كانت تشتكي أحيانًا: «استقبلت اليوم عددًا كبيرًا جداً من الناس.» كانت الغرفة مليئة بالزهور: بخور مريم، وأزاليات، والورود، وشقائق النعمان؛ وعلى طاولة سريرها كانت صناديق مكدسة من عجائن الفواكه، والشوكولاتة، وحلوى السكر. سألتها: ألا

مكتبة ياسمين

تشعر بالملل؟ – «أوه! لا!» اكتشفت متعة الخدمة، الرعاية، الدلال. وقبل ذلك، كان من الصعب عليها أن تخطو على حافة حوض استحمامها من دون مساعدة السلم؛ ويتطلب ارتداء جواربها تمرينًا مؤلمًا. أما الآن، في الصباح والمساء تدلكها ممرضة بالماء المعطر وترشها بمسحوق التالك، وتأتي لها بوجبات طعامها في طبق. قالت لي: «هناك ممرضة تزعجني تسألني متى أنوي المغادرة. لكنني لا أريد المغادرة» وعندما أعلموها بأنها حالما تكون قادرة على الجلوس في كرسي، فإنهم سينقلونها إلى مركز للنقاهة. فاغتمت: «سيحملونني ويدفعونني.» ومع ذلك في بعض الأحيان كانت تهتم بمستقبلها. أخبرتها صديقة عن بيوت التقاعد على بعد ساعة من باريس: «لا أحد سيأتي لرؤيتي، سأكون وحيدة تمامًا!» قالت ذلك بهيئة غير سعيدة. أكدتُ لها أنها لن تكون منفية، وأريتها قائمة العناوين التي جمعتها. فتخيلت نفسها سعيدة بالقراءة أو الحياكة في الشمس في حديقة دار الضيافة في نيولي. «سأفتقد هؤلاء السيدات» قالت لي ذات مرة: «لقد عشت كثيرًا من أجل الآخرين. والآن سأكون واحدة من تلك السيدات العجائز الأنانيات اللواتي يعشن لأنفسهن فقط.» كان هنالك شيء واحد يقلقها: «لن أكون قادرة على تنظيف نفسي» فطمأنتها: هنالك ممرض خافر، وممرضة ستعتني بها. وفي غضون ذلك، ستتمتع في أحد الأسرة في «أفضل عيادة في باريس، أفضل بكثير من عيادة G.» كنا نتابعها عن كثب. فبالإضافة إلى الأشعة السينية، كنا نجري لها العديد من فحوصات الدم: كل شيء طبيعي. وفي ذات مساء كانت تعاني من حمى

طفيفة. كنت أود أن أعرف لماذا؟ ولكن يبدو أن الممرضات لا يعلقن أية أهمية على ذلك.

في يوم الأحد قالت لي: «بالأمس، رأيت الكثير من الناس، لقد أرهقوني» كانت في مزاج سيئ وكانت ممرضاتها الاعتياديات قد خرجن؛ وقامت ممرضة حديثة عهد بالتمريض بقلب «الحاوية الطبية» المليئة بالبول؛ فابتل السرير، بما في ذلك الوسادة، غالبا ما كانت تغمض عينيها وذكرياتها مشوشة. لم يكن الدكتور T يفك رموز الكليشيهات التي قدمها الدكتور D وكان علينا في اليوم التالي أن نأخذ لها صورة جديدة للأمعاء بالأشعة السينية. فقالت لي أمي: «سوف يحقنونني بحقنة شرجية بأكسيد الباريوم: إنه مؤلم! وسوف يهزونني مرة أخرى، وينقلونني، أريد فقط أن يتركوني وحدي بسلام!» كنت أصافح يدها الباردة المتعرقة، قلت لها «لا تفكري في ذلك مسبقًا ولا تكوني قلقة. فالقلق يؤلمك» هدأت تدريجيًا، لكنها بدت أضعف من اليوم السابق. بعض الصديقات اتصلن هاتفيًا، فأجبت. «حسنا! قلت لها. هذا الأمر لا يتوقف. لن تكون ملكة إنجلترا مدللة بعد الآن: الزهور، الرسائل، الحلويات، المكالمات الهاتفية! بعض الناس يفكرون بك» أمسكت بيدها المتعبة، بينما أبقت عينيها مغمضتين، ولكن كانت هناك تترصع ابتسامة على فمها الحزين: «إنهم يحبونني لأنني مرحة.»

كانت تتوقع الكثير من الزوار يوم الإثنين، وكان عليّ أن أفعل شيئًا ما. لم أعد حتى صباح الثلاثاء. حين دفعت الباب تجمدت على الفور. أمي، نحيفة جدًا، يبدو أنها أصبحت نحيفة مرة أخرى فهي

مكتبة ياسمين

ملتفة حول نفسها، مثل قطعة خشب يميل لونها إلى اللون الوردي. وبصوت واهن إلى حد ما، همست: «لقد جففوني بالكامل.»

انتظرت حتى المساء من أجل إجراء الأشعة السينية، ولم يسمح لها بالشراب لمدة عشرين ساعة. حقنة الباريوم الشرجية لم تكن مؤلمة، لكن العطش والقلق استنفداها. لقد ذاب وجهها وشتّجته الأحزان. ماذا قالت الأشعة السينية؟ قالت لي الممرضات بملامح خائفة «نحن لا نعرف قراءتها».

تمكنت من رؤية الطبيب T. مرة أخرى، كانت المؤشرات مربكة؛ لا يوجد «كيس»، وفقًا له، ولكن كانت الأمعاء معقودة نتيجة التشنجات ذات المنشأ العصبي، التي منعتها منذ اليوم السابق من العمل. كانت أمي متفائلة بعناد، ومع ذلك كانت متوترة، قلقة: هذا ما كانت توضحه تشنجاتها اللاإرادية. كانت مرهقة جداً لاستقبال الزيارات، فطلبت مني أن ألغيها عن طريق الاتصال هاتفيًا بالأب P، كاهن اعترافها. كانت تتحدث معي بصعوبة والابتسامة لم تفارقها.

قلت لها وأنا أهم بالانصراف: «أراك مساء الغد». كانت أختي تأتي في الليل وتذهب إلى العيادة في الصباح. في التاسعة مساء، رن جرس هاتفي. لقد كان البروفيسور B. هل توافقين على أن أضع ممرضة خافرة ليلية بجانب المدام والدتك؟ إنها ليست على ما يرام. كنت تخططين للمجيء مساء الغد: لذا من الأفضل أن تكوني هنا في الصباح الباكر» وانتهى بأن أخبرني أن ورمًا كان يسد الأمعاء الدقيقة: أمي مصابة بالسرطان.

السرطان. كان منتشرًا. وحتى أنه كان واضحًا: بهذه الهالات السوداء، وهذه النحافة. لكن طبيبها استبعد هذه الفرضية. وهو معروف جيدًا: الآباء هم آخر من يعترف بأن ابنهم مصاب بالجنون، والأطفال بأن أمهاتهم مصابات بالسرطان. كنا نظن أقل بكثيرأنها كانت خائفة منه طوال حياتها عندما كانت في الأربعين، فلو ضربت صدرها قطعة أثاث، لشعرت بالهلع، سأصاب بسرطان الثدي «في الشتاء الماضي، أجرى أحد الأصدقاء عملية سرطان المعدة: «هذا ما سيحدث لي أيضًا.» لقد تجاهلت: هناك اختلاف كبير بين السرطان والكسل المعوي الذي يعالج بمربى التمر الهندي. لم نتخيل أن هوس أمي يمكن تبريره. ومع ذلك – أخبرتنا لاحقاً – كان السرطان هو الذي فكرت فيه فرانسين دياتو: لقد تعرفت على هذا القناع وأيضًا، أضافت، تلك الرائحة. كل شيء كان واضحًا. كانت نوبة أمي في الألزاس نتيجة ورمها الخبيث. فقد سبب لها السرطان الإغماء، والسقوط. وهذان الأسبوعان في السرير قد عجلا بالإعاقة المعوية التي كانت مهددة بها منذ مدة طويلة.

بوبيت التي اتصلت بأمي عدة مرات، كانت تظنها بصحة ممتازة. وهي معها أكثر حميمية مني، وكانت أيضًا أكثر ارتباطًا. لم أستطع أن أدعها تذهب إلى العيادة لتكتشف فجأة وجهًا محتضرًا. اتصلتُ بها، بعد وقت قصير من وصول قطارها، في بيت دياتو. لقد كانت نائمة بالفعل: ويالها من يقظة!

كان هناك إضراب لعمال النقل والغاز والكهرباء في يوم الأربعاء، السادس من نوفمبر- تشرين الثاني.. طلبت من بوست أن يأتي إليّ بالسيارة،

مكتبة ياسمين

وقبل وصوله، اتصل بي الأستاذ B مرة أخرى: أمي كانت تتقيأ طوال الليل، وربما لن تنجو هذا اليوم.

كانت الشوارع أقل ازدحامًا مما كنت أخشى. وفي حوالي الساعة العاشرة وجدت بوبيت أمام باب الغرفة 114. لقد كررت لها كلمات البروفيسور B. وأبلغتني في الصباح الباكر، أن مستشار العناية المركزة. الدكتورN.، الذي كان يعتني بأمي؛ كان على وشك أن يضع مسباراً في أنفها لتنظيف معدتها: «ولكن ما الفائدة من تعذيبها، إذا كانت ضائعة؟ لندعها تموت قريرة العين»، قالت لي بوبيت. فأرسلتها لتلتحق ببوست، الذي كان ينتظر في القاعة: فاصطحبها لتناول القهوة. مر الدكتور N من أمامي، وما إن كان على وشك دخول الغرفة، حتى منعته: كان يرتدي بلوزًا أبيض، ويعتمر قبعة بيضاء، كان شاباً، بوجه متجهم: «لماذا هذا التحقيق؟ لماذا تعذب أمي بينما لا يوجد أمل؟» صعق في وجهي وقال «أنا أفعل ما يجب عليّ أن أفعله» فدفع الباب. بعد فترة وجيزة أخبرتني ممرضة أن أدخل.

عاد السرير إلى وضعه الطبيعي، في منتصف الغرفة، ورأسها يستند إلى الجدار. على اليسار، يتصل مصل بذراع أمي. ويخرج من أنفها خرطوم بلاستيكي شفاف ينتهي بقنينة، من خلال آلات معقدة. وكانت فتحتا منخريها مضغوطتين، ووجهها ذابلًا مرة أخرى، كانت في جو من الشعور بالأسى. قالت لي في حالة من التذمر: إن المسبار لم يزعجها كثيرًا، لكنها عانت كثيرًا أثناء الليل. كانت عطشانة وعليها ألاّ تشرب؛ كانت الممرضة تقرّب قطارة من فمها بعد أن تغمسها في قدح من الماء: كانت أمي ترطب شفتيها من دون

مكتبة ياسمين

أن تبلع الماء. وكانت حركة المص هذه تفتنني، سواء في اللهفة والمسك بهذه الشفة المظللة بزغب طفيف، والتي كانت تتضخم مثلما كانت تتضخم في طفولتي عندما تكون أمي مستاءة أو متضايقة. قال لي N بلهجة عدوانية، مشيرًا إلى وعاء مملوء بمواد يميل لونها إلى الاصفرار: «هل تريدين أن نتركها في المعدة؟» لم أردّ بأي شيء. وفي الممر، قال لي: «عند الفجر، لن يبقى لها من الحياة سوى أربع ساعات. لقد أحييتها». ولم أكن لأجرؤ على سؤاله: لماذا؟

كان عدد من الاختصاصيين الاستشاريين. وأختي بجانبي بينما الطبيب والجراح، والدكتور P، يجسون البطن المتورم. وأمي تشتكي تحت أصابعهم، تصرخ. حقنة من المورفين. تشتكي ثانية. نطلب، «احقنوا حقنة أخرى!»

يعترضون على أن الإفراط في المورفين يشل الأمعاء... فبماذا يأملون؟ انقطعت الكهرباء بسبب الإضراب، فأرسلوا عينة من الدم إلى مستشفى أمريكي يملك مولدًا كهربائيًا. هل يفكرون بعملية؟ هذا مستحيل، المريضة ضعيفة جداً، كما أخبرني الجراح وهو يخرج من الغرفة. يذهب بعيدًا، وممرضة مسنة، هي السيدة غونتراند، التي سمعته، يقول لي في عجالة: «لا تدعيها تجري العملية!» ثم وضعت يدها على فمها: «لو علم الطبيب N أنني أخبرتك بهذا! لقد تحدثت إليك كما لو أنها أمي» سألتها، «ماذا سيحدث لو أجرينا لها عملية جراحية؟» لكنها أقفلت الباب عليها، ولم ترد.

كانت أمي نائمة، فذهبت وتركت عند بوبيت،

مكتبة ياسمين

أرقام الهاتف. وعندما اتصلت بي وأنا في بيت سارتر حوالي الساعة الخامسة كان هناك أمل في صوتها: «الجراح يريد إجراء العملية» فحوصات الدم مشجعة جداً، إنها تستعيد قوتها، القلب سيصمد. وفي نهاية المطاف ليس من المؤكد تمامًا أنه سرطان: ربما يكون التهاب الصفاق البسيط. وفي هذه الحالة، لديها فرصتها هل توافقينني الرأي؟ – (لا تدعيها تجري العملية) أنا موافقة. في أي وقت؟ – تعالي في الساعة الثانية. لن نخبرها بأننا نجري لها عملية جراحية. سنخبرها بأننا نجري لها أشعة سينية مجددًا»

«لا تدعيها تجري العملية» حجة ضعيفة ضد قرار اختصاصي، وضد آمال أختي. ألن تستيقظ أمي؟ لم يكن أسوأ الحلول. ولم أفترض أن الجراح سيخاطر بذلك، ستهرب. هل ستعجل العملية من تطور المرض؟ ربما هذا ما عنته السيدة غونتراند. لكن في مرحلة الانسداد المعوي، لم تكن أمي قادرة على البقاء على قيد الحياة لمدة ثلاثة أيام وكنت أخشى أن يكون عذابها موجعًا.

بعد ساعة، كانت بوبيت، معي على الهاتف وهي تبكي: «تعالي على الفور. لقد فتحوا. ووجدوا ورمًا ضخمًا، ورمًا سرطانيًا...» نزل سارتر معي، ورافقني بسيارة أجرة إلى العيادة. كانت حنجرتي معقودة بالقلق. أومأت لي الممرضة أين كانت أختي تنتظر بين قاعة المدخل وغرفة العمليات. كانت منهارة تمامًا، لدرجة أنني طلبت لها مهدئًا. قالت لي إن الأطباء حذروا أمي، بطريقة طبيعية جداً، ذلك أنهم قبل التصوير الإشعاعي، سيعطونها حقنة مهدئة. خدرها الطبيب N. وفي أثناء التخدير أمسكت بوبيت بيد أمي، فتخيلت أية محنة تحبيرها

مكتبة ياسمين

وهي ترى هذا الجسد العجوز مجردًا من ثيابه الذي هو جسد أمها. عينان مضطربتان، وفم مفتوح: هذا الوجه الذي لا يمكن أن تنساه أبدًا. نُقلت أمي إلى غرفة العمليات التي تركها الدكتور N. بعد فترة: ليتران من القيح في البطن، وتمزق في الصفاق، وورم ضخم، سرطان من أخبث الأنواع. كان الجراح يزيل كل شيء تمكن إزالته. وبينما كنا ننتظر، دخلت قريبتي جين مع ابنتها شانتاي، لقد أتت من ليموج وظنت أنها ستجد أمي طريحة الفراش: وكانت شانتاي قد جلبت معها كتاب الكلمات المتقاطعة. تساءلنا ماذا سنقول لأمي عندما تستيقظ؟ كان الأمر بسيطًا، لقد أظهر التصوير الشعاعي بأنها مصابة بالتهاب الصفاق وتقرر على الفور إجراء العملية.

لقد أعدنا أمي إلى غرفتها للتو، فقال N. إنه مغتبط: كانت نصف ميتة هذا الصباح، لقد تحملت تداخلا جراحيا طويلًا وجادًا. فبفضل أحدث أساليب التخدير، استمر القلب والرئتان، وأعضاء الجسم كله في العمل بشكل طبيعي. ومما لا شك فيه أنه حقق إنجازًا فنيًا رائعًا؛ وكانت النتائج، من دون شك أنه نفض يديه. قالت شقيقتي للجراح: «اجر العملية لأمي. لكن إن كان سرطانًا، عدني أنك لن تدعها تعاني.» لقد وعد. فكم كانت قيمة كلمته؟ أمي كانت نائمة، مستلقية على ظهرها شاحبة، أنفها مضغوط، وفمها مفتوح. وكانت شقيقتي والممرضة هما من يسهر عليها. أما أنا فقد ذهبت إلى البيت، تحدثت إلى سارتر، استمعنا إلى موسيقى بارتوك. وفجأة، في الساعة الحادية عشرة مساء، تتفاقم نوبة من الدموع وتتحول إلى نوبة عصبية.

مكتبة ياسمين

حقًا أنه لشيء مذهل. فعندما توفي والدي لم أبك. قلت لشقيقتي، «بالنسبة لأمي، سيكون الأمر سواء.» كل أحزاني، حتى هذه الليلة، تفهمتها، حتى عندما استحوذت عليّ وأنهكتني، كنت أعرف نفسي من خلالها. لكن هذه المرة فلت يأسي عن سيطرتي: شخص آخر كان يبكي بداخلي. لقد تحدثت إلى سارتر عن فم أمي كما رأيته في الصباح، وحاولت بكل ما استطعت فك شيفرته: الشراهة المرفوضة، والتواضع الخانع تقريباً، وعن الأمل، والشقاء، والشعور بالعزلة – هذه نتيجة لموتها، وهذه نتيجة لحياتها – التي لم تكن تريد الاعتراف. وفمي، قال لي، لم يعد يطيعني: لقد تلبس وجهُ أمي وجهي فكنت أحاكي إيماءاته، على الرغم مني. كل شخصيتها، ووجودها بالكامل كان يتجسد هنا والشفقة تمزقني إربًا إربًا.

لا أعتقد أن أمي كانت سعيدة عندما كانت فتاة. لقد سمعتها تستعيد ذكرى واحدة سارة فقط: حديقة جدتها في قرية في لورين، ثمار الجانرك والخوخ الأخضر التي كنا نأكلها على الشجرة وهي ساخنة. لم تحك لي شيئًا عن طفولتها في فيردان. كانت هناك صورة فوتوغرافية تمثلها، وهي في الثامنة، متنكرة على شكل زهرة أقحوان... «كنت ترتدين بدلة جميلة». أجابت: «نعم، لكن جواربي الخضر تلاشت، فقد انطبع اللون نفسه في جلدي، استغرق مني ثلاثة أيام لإزالته.» كان صوتها مستاء: كانت تتذكر الماضي المرير. وتشتكي لي أكثر من مرة عن جفاف والدتها. كانت جدتي وهي في سن الخمسين، امرأة متغطرسة ومتحفظة، تضحك قليلًا، وتغتاب كثيرًا، ولم تعكس لأمي سوى المودة التقليدية جداً. كانت مخلصة لزوجها بشكل متعصب، أما أطفالها فلم يكن لديهم سوى مكان ثانوي في حياتها. أما بخصوص جدي فقالت لي أمي بشعور من الامتعاض في الغالب: «لا يقسم إلاّ بعمتك ليلي.» وليلي أصغر منها بخمس سنوات، شقراء فائقة الحسن، أثارت في ابنتها الكبرى غيرة حامية لا تمحى. حتى اقتراب سن المراهقة، نعتتني أمي بأعلى الصفات الفكرية والأخلاقية: كانت تتماهى بي؛ فأذلت أختي وسحقتها؛ وكانت هي الأصغر، فائقة الحسن، شقراء، ومن دون أن تدرك ذلك، كانت أمي تنتقم منها.

كانت تتحدث لي بفخر عن الطيور وعن الأم الموقرة التي كان احترامها يواسي احترامها

لذاتها. لقد أرتني صورة لفصلها: ست فتيات صغيرات، يجلسن في حديقة، بين راهبتين. هناك أربع طالبات داخليات بثياب سود واثنتان خارجيات بلباس أبيض: أمي وإحدى صديقاتها. جميعهن يرتدين صدريات صاعدة، وتنانير طويلة، بعقيصات شعر بسيطة. وعيونهن لا تعبر عن أي شيء. لقد دخلت أمي الحياة مع أكثر المبادئ صرامة: آداب القروية وأخلاق راهبة.

وفي سن العشرين عانت من انهيار عاطفي آخر: ابن العم الذي أحبته فضل ابنة عم أخرى، عمتي جيرمين. فاحتفظت من خيبات الأمل هذه، بخلفية من الحساسية والضغينة طوال حياتها. إزاء أبي، فقد تهللت به. كانت تحبه، ومعجبة به، ولعشر سنوات كان من دون شك، يرضيها جسديًا. كان يحب النساء، وكان لديه العديد من المغامرات، وكان يعتقد – مثل مارسيل بريفوست، الذي قرأه بشغف – أنه لا يجب أن تعامل عروسك بشغف أقل من عشيقة. وكان وجه أمي، بهذا الزغب الطفيف الذي يظلل شفتها العليا، يفشي شهوانية ساخنة. فكان انسجامهما واضحًا: كان يداعب ذراعي أمي، ويحتضنها، ويتحدث معها برقيق الكلام المتملق. قابلتها مرة في صباح أحد الأيام – وكان عمري ست أو سبع سنوات – حافية القدمين على السجادة الحمراء في الممر، في ثوب نومها الأبيض الطويل؛ وشعرها يسقط ملتويًا على رقبتها، فاستولى علي شعاع ابتسامتها التي ربطتني بطريقة غامضة إلى تلك الغرفة التي خرجتْ منها، كنت بالكاد أتعرف في هذا المظهر النضر على الشخصية المحترمة الكبيرة التي كانت هي أمي.

لكن لا شيء أبدًا يلغي طفولتنا. فسعادة أمي لم تكن من دون منغصات. فمنذ رحلة رتوسيس rtoces، اندلعت أنانية أبي؛ فهي كانت تريد أن ترى البحيرات الإيطالية: توقفا في نيس حيث كان موسم السباق مفتوحًا. وكثيرًا ما كانت تشير إلى خيبة الأمل هذه، غير متذمرة، ولكنها نادمة. كانت تحب السفر، وكانت تقول: «أردت أن أكون مستكشفة» فكانت أفضل لحظات شبابها هي الرحلات سيرًا على الأقدام أو بالدراجة التي نظمها جدها في أنحاء فوسجيس ولوكسمبورغ. كان عليها أن تتخلى عن العديد من أحلامها. كانت رغبات أبي تأتي دائمًا قبل أحلامها. توقفت عن مقابلة أصدقائها الشخصيين الذين وجد أزواجهم مزعجين. كان يحب ارتياد الصالونات وخشبات المسارح. وهي تتبعه بسعادة إلى هناك، إذ كانت لديها ميول اجتماعية. ولكن جمالها لم يحمها من الحقد؛ كانت قروية، قليلة الفطنة؛ في هذا الوسط الباريسي، فيقابلون ارتباكها بالابتسامة. بعض النساء اللاتي قابلتهن هناك كانت لديهن علاقات مع أبي: أستطيع أن أتخيل الهمسات، والخيانات. وكان أبي يحتفظ بصورة لعشيقته الأخيرة في مكتبه، رائعة وجميلة، تأتي أحيانًا إلى المنزل مع زوجها. وبعد ثلاثين عامًا قال لأمي، وهو يضحك: «أنت من أخفى صورتها.» فأنكرت ذلك، لكنها لم تقنعه. ومما هو مؤكد أنها في وقت شهر عسلها عانت من حبها وكبريائها. شديدة الانفعال، كليًا، ولم تكن جراحها لتشفى بعد.

ثم أفلس جدي. فشعرت، بالخزي، لدرجة أنها قطعت علاقتها بـ فيردان. والمهر الذي وعد به

أبي لم يدفعه. فوجدت أنه من النبل بأنه لم يضمر لها الضغينة، وطوال حياتها كانت تشعر بالذنب أمامه.

ومع ذلك: كان الزواج ناجحًا، أنجبت منه ابنتين تعتز بهما، وعاشت في بحبوحة من الحياة، ولم تشك أمي حتى نهاية الحرب مما آل إليه مصيرها. كانت حنونة ومسرورة، تسعدني ابتسامتها.

عندما تغير وضع أبي وعانينا من ضنك العيش، قررت أمي إدارة المنزل من دون مساعدة. ولسوء الحظ، أرهقتها الأعمال المنزلية، ولأنها كرست نفسها له، كانت تظن أنه يحط من شأنها. كانت قادرة على نسيان نفسها، من دون أن تلتفت إلى أبي، أو إلينا. لكن لا أحد يستطيع أن يقول: «أضحي بنفسي» من دون الشعور بالمرارة. أحد تناقضات أمي هي أنها آمنت بعظمة الإخلاص ورغم ذلك كانت تتمتع بسلامة الذوق، والاشمئزاز، والرغبات الاستبدادية وعدم حمل الكراهية في نفسها ضد من ينكّد عليها... لقد كانت تتمرد باستمرار على الحرمان والقيود التي كانت فرضتها على نفسها.

من المؤسف أن الأفكار المسبقة قد أبعدتها عن تبني الحل الذي اتبعته بعد عشرين عامًا، وعملها في الخارج. ولأنها صلبة الرأي ونزيهة وموهوبة بذاكرة حية، كان من الممكن أن تصبح أمينة مكتبة، أو سكرتيرة: لكانت ترتقي إلى مستوى احترامها بدلًا من أن تشعر بالتضاؤل، ولكانت تقيم علاقات خاصة بها، والتخلص من التبعية، التي كانت تجعل منها النواميس تلقائية، لكنها لم تكن تناسب شخصيتها على الإطلاق. ولا شك أنه كان

بوسعها أن تتحمل الإحباط الذي تعاني منه على نحو أفضل.

أنا لا ألوم والدي. فنحن نعرف بما فيه الكفاية أن الاعتياد تقتل الرغبة في الإنسان. لقد فقدت أمي أول نضارة لها وفقد هو حماسته لها. وبدلًا من أن يستنهضها، كان يلجأ إلى المومسات في مقهى فرساي أو نزيلات أبو الهول. لقد رأيته أكثر من مرة، وأنا بين الخامسة عشرة والعشرين من عمري، يعود إلى المنزل في الساعة الثامنة صباحًا، تفوح منه رائحة الكحول وهو يروي قصصًا بمظهر مرتبك عن لعب الورق أو البوكر. كانت أمي تستقبله من دون حدث مأساوي؛ ربما كانت تصدقه، لأنها تدربت على الهرب من الحقائق المزعجة. لكنها لم تستطع العيش مع عدم مبالاتها. هذا الزواج البورجوازي هو مؤسسة غير طبيعية، قضيته ستكون كافية لأقتنع بذلك. لقد أتاح لها الخاتم الذي في إصبعها معرفة المتعة؛ وأصبحت حواسها كثيرة المطالب. وفي سن الخامسة والثلاثين، وهي في مقتبل حياتها، لم يعد يسمح لها بإشباعها. ظلت تنام جنب الرجل الذي أحبته، والذي لم يعد ينم معها قط: كانت تأمل، وتنتظر، حتى استهلكت نفسها من دون جدوى. كان التعفف التام هو أدنى الفخر من تلك العلاقات غير الشرعية. لست مندهشة من تغير مزاجها: الصفعات والصراخ والغضب، ليس في العلاقات الحميمة فقط، ولكن حتى في حضور الضيوف. كان أبي يقول: فرانسواز لها شخصية كلب. وكانت تعترف بأنها كانت «تغضب» بكل بساطة. لكنها كانت مجروحة عندما سمعت الناس يقولون «فرانسواز متشائمة جدًا» أو: «فرانسواز

مكتبة ياسمين

تعاني من الوهن العصبي.»

كانت تحب التبرج كامرأة شابة، وتتألق عندما كانوا يقولون لها: أنت تشبهين شقيقتي الأكبر. كانت تكن الود والاحترام إلى ابن عم أبي الذي كان يعزف على التشيلو، وهي ترافقه العزف على البيانو، وعندما تزوج، كرهت زوجته، لاسيما بعد أن تدهورت حياتها الجنسية وحياتها الاجتماعية وعلاقتها بالأزياء، إلا في الحالات الجسيمة التي كان فيها «اللباس» إلزاميًا.

توقفت أمي عن الاعتناء بنفسها. أتذكر عودتنا من العطلة، كانت تنتظرنا في المحطة، وهي ترتدي وشاحًا وقبعة مخملية جميلة، كانت مسحوقة إلى حد ما. فهتفت شقيقتي مسحورة: «أمي، تبدين كسيدة راقية!» ضحكت من دون دافع خفي، لأنها لم تعد تعتز بأناقتها. انتهت بالنسبة لبناتها، وبالنسبة لها، إلى ازدراء الجسد الذي كانوا يدرسونها إياه في الدير إلى حد الافتقار إلى النظافة الصحية. ومع ذلك وكان هذا أحد تناقضاتها – كانت تحتفظ برغبة الإعجاب؛ والإطراءات التي تتملقها؛ فترد عليها بغنج. مرة ضحكت بخيلاء عندما قام صديق لوالدي بالتوقيع على كتاب (نُشر على نفقة المؤلف): « إلى فرانسواز دي بوفوار، التي تحظى حياتها بإعجابي.» تحية مبهمة: كانت تستحق الإعجاب بسبب الانزواء، الذي حرمها من المعجبين. كانت هذه المرأة المختالة، العنيدة المفطومة من مباهج الجسد، والمحرومة من إشباع الغرور، التي استعبدتها الأعمال الروتينية التي كانت تشعرها بالملل، والإهانة. لم تنذر نفسها للاستسلام. بين نوبات غضبها. لم تتوقف عن الغناء، والمزاح،

مكتبة ياسمين

والثرثرة، وهي تكتم تحت الضجيج نفحات قلبها. بعد وفاة أبي، زجرت العمة جيرمين بعنف عندما أوحت بأنه لم يكن زوجًا مثاليًا: «لطالما كان يغدق علي بالسعادة» وبالتأكيد لم تتوقف عن تأكيد ذلك. ومع ذلك، فإن هذا التفاؤل المتكلف لم يكن كافيًا لإرضاء طمعها. هرعت إلى المخرج الوحيد الذي سنح لها: وهو أن تتغذى على حياة الشباب التي زخرت بها. قالت لي لاحقاً: «على الأقل لم أكن أنانية أبدًا. لقد عشت من أجل الآخرين». نعم؛ ولكن من خلالهم أيضًا. كانت تود أن تمسك بنا بين راحتيها امتلاكًا وهيمنة. لكن في اللحظة التي أصبح فيها هذا التعويض ضروريًا لها، بدأنا نتمنى الحرية والعزلة. كانت الصراعات تتفقس، وتنفجر، ولم تساعد أمي على استعادة توازنها، إلا أنها كانت الأقوى: فقد سادت إرادتها. في المنزل، وكان علي أن أترك جميع الأبواب مفتوحة، وأعمل أمام نظرها في الغرفة التي كانت تقف فيها. وعندما كنا نتحدث في الليل أنا وأختي من سرير إلى سرير، كانت تلصق أذنها إلى الجدار، ينهشها الفضول، فتصرخ بنا: «اخرسا» رفضت أن تدعنا نتعلم السباحة ومنعت أبي من شراء دراجات لنا: من خلال تلك الملذات التي لم تكن لتشاطرنا إياها، كنا نهرب منها. وإذا ما كان يقتضي أن تكون متورطة في جميع انحرافاتنا، فلم يكن ذلك بسبب أن لديها القليل فقط: لأسباب، ربما تعود إلى طفولتها، لا تتحمل أنّ تشعر بأنها مستبعدة. ولم تكن تتردد في فرض نفسها، حتى عندما علمت أنها غير مرغوب فيها. ذات ليلة في لاغرييه، كنا في المطبخ مع حفنة من الفتيان والفتيات، أصدقاء أبناء عمومتنا، نطبخ جراد البحر

الذي كنا قد اصطدناه للتو بالفوانيس. ظهرت أمي فجأة، وهي البالغة الوحيدة: «من حقي أن أتناول العشاء معكم.» لقد جمدتنا، لكنها بقيت. وفي وقت لاحق، رتب ابن عمي جاك لي ولأختي موعدًا عند باب صالون الخريف؛ ورافقتنا أمي؛ ولم يظهر. قال لي في اليوم التالي: «رأيت أمك، لذا غادرت». لم يكن حضورها خفيفًا. فعندما نستقبل بعض الأصدقاء – «لدي الحق في التذوق معكم» – كانت تستأثر بالحديث. في فيينا، في ميلانو، كانت أختي تغضب في كثير من الأحيان من خلال إصرار أمي، خلال عشاء أكثر أو أقل رسمية، على الاندفاع إلى المقدمة.

حالات التطفل المرهقة هذه، وهذه المداخل شديدة الأهمية، كانت بالنسبة لها حالات ثأر: لم تكن لديها الفرصة في كثيرًا من الأحيان لتأكيد نفسها. كانت تلتقي قلة من الناس. فعندما كان أبي هنا، كانت هي من تطوف في أرجاء الغرفة. والجملة التي كانت تزعجنا: «لدي الحق»، في الواقع تثبت افتقارها للثقة: رغباتها لم تكن مبررة ذاتيًا، وغير قادرة على كبح جماح نفسها وسليطة في وقت فراغها، كانت تدفع بدم بارد حرية التصرف إلى حد التواضع. كانت توبخ أبي بسبب أشياء تافهة؛ لكنها لم تجرؤ على أن تطلب منه المال، ولم تنفقه لنفسها، وأقل ما يمكن لنا؛ كانت تتركه يقضي كل سهراته خارج المنزل ويخرج وحده يوم الأحد. بعد وفاته، وعندما اعتمدت علينا، كان لديها نفس الوسواس تجاهنا: لا تزعجونا. ولم يكن لديها أية طريقة أخرى للتعبير عن مشاعرها لنا لأنها أصبحت ملزمة بنا؛ في حين أن الرعاية التي أولتنا إياها في السابق كانت تبرر في نظرها

استبدادها.

كان حبها لنا عميقًا وحصريًا في الوقت ذاته، والتمزق الذي عانينا منه كان يعكس صراعاتها هي بالذات. هشة جداً - يمكن أن تجتر اللوم والتوبيخ لمدة عشرين أو أربعين عامًا - بحيث إن التعبير عن الحقد الذي يسكنها ينبعث عن طريق السلوكيات العدوانية: الصراحة الوحشية، والحقد الشديد في نظرنا، وغالباً ما كانت تُظهر شرًا أكثر فزعًا من السادية. لم تتمنَّ تعاستنا وإنما لتثبت قوتها. وبينما كنت في إجازة في بيت زازا كتبت لي شقيقتي؛ تحدثت معي بأسلوب مراهقة، عن قلبها، وعن روحها، وعن مشاكلها. فأجبتها. فتحت أمي رسالتي، وقرأتها بصوت عال أمام بوبيت، وهي تضحك فاضحة أسرارها... استشاطت بوبيت غضبًا فقمعتها لازدرائها، وأقسمت أن لا تغفر لها أبدًا. فأخذت أمي تنتحب وتتوسل إلي برسالة، لتحقيق المصالحة بينهما: وهذا ما فعلته.

كانت تريد تأمين سطوتها على شقيقتي بشكل خاص، فأخذت تستاء من صداقتنا. عندما علمت أنني فقدت إيماني، صرخت بها بشراسة: «سأدافع عنك ضد تأثيرها عليك. سوف أحميك!» وخلال العطل، تمنعنا من اللقاء وحدنا: فكنا نلتقي بشكل سري في بساتين الكستناء. لقد هيمنت هذه الغيرة عليها طوال حياتها، ولقد حافظنا حتى النهاية على عادة إخفاء معظم لقاءاتنا عنها. لكننا في كثير من الأحيان كنا نتأثر بدفء عاطفتها. كانت بوبيت في حوالي السابعة عشرة من عمرها، ومن دون قصد، مناسبة لخلاف بين أبي و«العم أدريان»، الذي كان يعتبره صديقه المفضل. فدافعت أمي عنها بشدة ضد أبي،

مكتبة ياسمين

الذي لم يعد يتحدث مع ابنته عدة أشهر... ثم وبخ شقيقتي لعدم تخليها عن نزعتها كرسامة تعيش في الأوهام وتبقى في المنزل. فلم يعطها فلساً واحداً وبالكاد ينفق عليها... كانت أمي تساندها وبذلت قصارى جهدها لمساعدتها. لم أنس كم كانت طيبة، فقد شجعتني بعد وفاة أبي على الذهاب في رحلة مع صديقة، في حين كان بإمكانها أن تمنعني بزفرة.

لقد أفسدت علاقاتها مع الآخرين برعونتها: لا شيء يمكن أن يكون أكثر ترويعًا من جهودها لإبعاد أختي عني عندما بدأ ابن عمنا جاك – الذي كانت تكن له قليلًا من الحب مما كانت تكنه لأبيه – يباعد بين زياراته في شارع دي رين، إذ كانت تستقبله في كل مرة بسيل من الاتهامات التي كانت تظنها أنها مثيرة للسخرية، وهو يراها مزعجة: فقلل من مجيئه شيئًا فشيئًا. ترقرقت الدموع في عينيها عندما انتقلتُ للعيش مع جدتي، وكنت ممتنة لها ولو أنها لم تنم عن مشهد من حنان: كانت تتجنب ذلك دائمًا ومع ذلك، في ذلك العام، وفي كل مرة كنت أتناول العشاء في المنزل، كانت تتذمر من أنني أهملت عائلتي، في حين في الواقع كنت أزورها في كثير من الأحيان. ولكنها من باب الفخر، ومن حيث المبدأ، لم تكن تريد أن تطلب أي شيء؛ وبعدئذ كانت تتشكى من أنها لم تتلق إلا القليل جداً.

لم تستطع التحدث عن صعوباتها لأي أحد، ولا حتى لنفسها. ولم أكن قد اعتدت أن أراها واضحة في داخلها أو أن آخذ برأيها الخاص. كانت بحاجة إلى الاختباء خلف الحجج: لكن تلك التي تحترمها لم تكن منسجمة معها؛ كان هناك،

مكتبة ياسمين

القليل من القواسم المشتركة بين الأم الأسمى (للفتيات) والأب. لقد شهدت هذه المعارضة في أثناء تأهلي الذهني وليس بعد اكتماله. كان لدي، بفضل طفولتي المبكرة، ثقة بأن أمي كانت محرومة، فطريق الاحتجاج، الذي كان هو طريقي، كان مغلقاً أمامها. لقد أخذت على عاتقها أن تكون على عكس رأي الجميع: كان المتكلم الأخير على حق. لقد قرأت الكثير؛ ولكن على الرغم من ذاكرتها الجيدة، نسيت كل شيء تقريباً: معرفة دقيقة، ورأي متباين من شأنهما أن يجعلا من المستحيل أن تنقلب في مواقفها التي قد تفرضها عليها الظروف. وحتى بعد وفاة أبي حافظت على هذا الحذر. كان شركاؤها أكثر تماشيًا مع أفكارها. كانت تصطف مع الكاثوليكيين «المستنيرين» ضد الأصوليين. ومع ذلك كانت هناك اختلافات داخل علاقاتها الاجتماعية. ومن ناحية أخرى، وبما أنني عشت في ضلالة، كانت تحسب لأفكاري على مستويات عديدة: وكذلك لآراء شقيقتي وآراء ليونيل. كانت تخشى أن «تُنعت بالبلهاء» في نظرنا. لذا استمرت تحتفظ بالغشاوة في رأسها وتقول نعم لكل شيء من دون أن تستغرب أي شيء. في سنواتها الأخيرة، بلغت في تماسكها حدًا معينًا. ولكن في الوقت الذي كانت فيه حياتها الوجدانية معذبة، لم يكن لديها عقيدة، أو مفاهيم، أو كلمات ترشدها. من هناك جاء قلقها المذعور.

إن التفكير في مواجهة الذات غالبًا ما يكون مثمرًا. لكن والدتي لها قصة أخرى: عاشت في الضد من نفسها. ولأنها غنية بميولها، استخدمت كل طاقتها لقمعها وعانت هذا الجحود في

مكتبة ياسمين

فورة الغضب. في طفولتها. ضغطوا جسدها، وقلبها، وعقلها تحت لجام المبادئ والمحظورات. لقد تعلمت أن تشد أربطتها بإحكام بنفسها. وفي داخلها امرأة من دم ونار: ولكنها مزورة، ومشوهة، وغريبة عن نفسها.

حالما استيقظت، اتصلت بشقيقتي. لقد استعادت أمي وعيها في منتصف الليل؛ وعلمت بإجراء عملية جراحية لها، وبدا أنها لم تكن متفاجئة. أوقفت سيارة أجرة. وسلكت ذات الطريق، الخريف الدافئ الأزرق ذاته، وذات العيادة. لكنني دخلت في قصة أخرى: بدلًا من النقاهة، والاحتضار. قبل ذلك، كنت أجيء إلى هنا لقضاء ساعات محايدة. أجتاز القاعة بلا مبالاة. وكانت المآسي تتكشف خلف الأبواب المغلقة: لم يكن يرشح أي شيء. ومن الآن فصاعدًا، فإن إحدى تلك المآسي هي مأساتي. صعدت الدرج بأسرع ما يمكن، وببطء قدر الإمكان. كانت هناك لوحة مثبتة على الباب: *الزيارات محظورة*. تغير المشهد ووضع السرير كما كان من قبل، كلا جانبيه سالكان. تم تخزين الحلوى في خزانن، وكذلك الكتب. وعلى طاولة كبيرة في الزاوية، لا مزيد من الزهور، وإنما هناك قوارير، وبالونات زجاجية، وأنابيب اختبار. كانت أمي نائمة، ولا يوجد أنبوب في أنفها، كان النظر إليها أقل إيلامًا؛ ولكنني كنت أرى هناك جرارًا تحت السرير وأنابيب تتصل بالمعدة والأمعاء. كانت ذراعها اليسرى متصلة بجهاز التنقيط. ولم تعد ترتدي أي ملابس: لقد مُدّ ثوبها الداخلي كغطاء فوق نصفها العلوي وعلى كتفيها العاريتين. دخلت شخصية جديدة إلى المشهد: إنها الممرضة الخاصة الآنسة ليبلون، رشيقة كصورة جانبية للرسام أنغر. كانت ترتدي قبعة زرقاء لحماية شعرها، وأقدامها ملفوفة بقماش أبيض؛ كانت تتفحص جهاز التنقيط، وتهز بالونًا لتخفيف

البلازما. أخبرتني شقيقتي أنه طبقاً للأطباء فإن مهلة لبضعة أسابيع، وربما لبضعة أشهر، غير ممكنة. سألت البروفيسور B «ولكن ماذا سنقول لأمي عندما يستأنف المرض مرة أخرى، في مكان آخر؟ – لا تقلقي. سنجد حلًا. سنجد حلًا دائمًا. والمريض مازال يصدقكم».

بعد الظهر، فتحت أمي عينيها، وكانت تتحدث بطريقة بالكاد نتميزها، ولكنها واضحة. «وهكذا! قلت لها. تكسرين ساقك، ونحن نجري لك عملية التهاب الزائدة الدودية!» رفعت أصبعًا وهمست بفخر: «ليس التهاب الزائدة الدودية. التها ب ال ص ف اق. وأضافت: «محظوظة.... بوجودي هنا. – هل أنت سعيدة بوجودي هنا؟ – لا. أنا» التهاب الصفاق: ووجودها في هذه العيادة أنقذها! الخيانة بدأت «سعيدة لأنه لم يعد لدينا هذا المسبار بعد الآن. سعيدة جداً!» بعد أن أُفرغت القمامة التي كانت تنفخ بطنها قبل يوم، لم تعد تعاني. ومع وجود ابنتيها بجانب سريرها، كانت تظن أنها في أمان. عندما دخل الطبيبان N. Pg.، قالت لهما بصوت مطمئن، وقبل أن تغمض عينيها: «أنا لست مهجورة». تبادلا التعليقات: «من المدهش كيف سرعان ما استعادت حالتها مرة أخرى! إنه لأمر مذهل!» بالفعل. بفضل عمليات نقل الدم وعمليات الحقن المتواصلة استعاد وجه أمي ألوانه استعادت هيئتها المعافاة. كان الشيء المؤلم المسكين الذي يستلقي على هذا السرير في الليلة السابقة قد تحول إلى امرأة. لقد أريت أمي كتاب الكلمات المتقاطعة الذي جلبته شانتاي. فتمتمت مخاطبة الممرضة: «لدي قاموس كبير لـ (لاروس)، القاموس الجديد الذي أهدي لي، من

مكتبة ياسمين

أجل الكلمات المتقاطعة.» هذا القاموس: إحدى سعاداتها الأخيرة. لقد تحدثت معي عنه منذ وقت طويل قبل شرانه. وكانت تتهلل في كل مرة كنت فيها أستشيره. قلت لها «سأحضره لك». «نعم. وكذلك قصة أوديب، التي حصلت عليها...» كان ينبغي أن نلتقط الكلمات من على شفتيها التي كانت تنتزعها من أنفاسها حتى أن غموضها كان مثيرًا للقلق ككلمات العرافات. كانت ذكرياتها ورغباتها وطموحاتها تطوف خارج الزمن وتحولت إلى أحلام غير واقعية ومؤلمة من خلال صوتها الطفولي وموتها الوشيك. لقد نامت كثيرًا. وبين الحين والحين تمتص بضع قطرات من الماء بالقطارة. وتبصق في مناشف ورقية تضغطها الممرضة على فمها. في المساء، بدأت بالسعال؛ جاءت الآنسة لوران للاطمئنان عليها، وتتفحصها، وتدلكها، ومساعدتها على التخلص من البلغم. عند ذاك ابتسمت لها أمي ابتسامة عريضة: هي الأولى لها منذ أربعة أيام.

قررت بوبيت قضاء لياليها في العيادة، قالت «لقد شهدتِ وفاة أبي وجدتي؛ وكنت أنا بعيدًا جداً، أما أمي، فأنا من سيعتني بها. بالإضافة إلى أنني أريد البقاء معها» فوافقتُ. تساءلت أمي مندهشة: «لماذا تريدين النوم هنا؟ – لقد نمتُ في غرفة ليونيل عندما أجريت له العملية، هذا هو المطلوب دائمًا – آه! حسنًا!»

ذهبت إلى البيت مصابة بالإنفلونزا، محمومة. إذ كنت وأنا أغادر العيادة الدافئة، أصبت بالبرد في الخريف الرطب، فاستلقيت، مخدرة بأقراص الدواء. لم أغلق هاتفي؛ فقد قال الأطباء إن أمي يمكن أن تنطفئ بين دقيقة وأخرى، «مثل الشمعة».

مكتبة ياسمين

وكان على أختي الاتصال بي عند أدنى إنذار وشيك. أيقظني جرس الهاتف في الرابعة صباحًا «هذه هي النهاية.» أمسكت جهاز الاستقبال وسمعت صوتًا غير معروف: رقم خاطئ. لم أنم إلا في الفجر. وفي الساعة الثامنة والنصف: رن جرس الهاتف ثانية؛ فأسرعت: اتصال غير مهم. لقد كرهته، هذا الجهاز الذي يشبه لونه عربة الموتى: «أمك مصابة بالسرطان. – أمك لن تقضي الليل.» في أحد هذه الأيام سوف يهمس في أذني: «هذه هي النهاية.»

أعبر الحديقة. أدخل القاعة. يمكن للمرء أن يتخيل نفسه في المطار: طاولات منخفضة، كراسٍ حديثة بذراعين، أشخاص يعانقون بعضهم بعضًا وهم يقولون مرحبًا أو إلى اللقاء، وآخرون ينتظرون، حقائب، وأكياس، وزهور في المزهريات، وباقات ملفوفة بورق لامع وكأنك ترحب بالمسافرين الذين على وشك النزول... لكن على الوجوه، وفي الهمسات، تشعر بشيء مريب. وفي بعض الأحيان، في المدخل الخلفي، يظهر رجل يرتدي ملابس بيضاء، ودم على نعليه. أصعد طابقًا. على يساري هناك ممر طويل مع غرف عديدة، وصالة الممرضات، والمكتب. وعلى اليمين، دهليز مربع، مؤثث بمقعد ومكتب وضع عليه هاتف أبيض. يطل على غرفة الانتظار من جهة وعلى الغرفة 114 من الجهة الأخرى. *الزيارات ممنوعة*. خلف الباب رأيت أنبوبًا قصيرًا: على اليسار، الحمام مع الحوض، و«الحاوية الطبية»، والقطن الطبي، والجرار. وعلى اليمين، خزانة وضعت فيها مستلزمات أمي؛ وعلى علاقة الملابس علق معطف منزلي أحمر، متسخ بالغبار. «لا أريد أن أرى هذا الرداء مرة أخرى.» أدفع

الباب الثاني. وقبل ذلك كنت أمشي في هذه الأماكن من دون أن أراها. والآن أعرف أنها تشكل جزءاً من حياتي إلى الأبد.

«أنا بخير» قالت لي أمي. وأضافت بطريقة ذكية: «أمس، عندما كان الأطباء يتحدثون فيما بينهم، سمعتهم يقولون: إنه لشيء مذهل!» لقد سحرتها هذه الكلمة: وكثيرًا ما كانت تنطقها بتأنيب ضمير، كصيغة سحرية تضمن شفاءها. ومع ذلك، لا تزال تشعر بالضعف الشديد، وكانت رغبتها الملحة هي تجنب أي جهد. كانت تحلم بأن تتغذى طوال حياتها بالقطارة: «لن آكل مرة أخرى أبدًا. - كيف! وأنتِ كنت شرهة جداً. - كلا. لن آكل بعد الآن.» تناولت الآنسة ليبلون مشطًا وفرشاة لتمشيط شعرها، فأمرتها أمي بلهجة آمرة: «قصي شعري.» فاعترضنا. «أنتم ستتعبونني: قصّيه.» أصرت على ذلك، وبعناد غريب: كما لو أنها أرادت أن تشتري بهذه التضحية راحة نهائية. وبهدوء حلت الآنسة ليبلون ضفيرتها وحلت شعرها السميك؛ وعقصته، ثم شبكت الجديلة الفضية بدبوس حول رأس أمي التي استعاد وجهها المسترخي نقاء مدهشاً. فكرت في لوحة ليوناردو دافنشي التي تمثل امرأة عجوزًا جميلة جداً فقلت لها: «أنت جميلة مثل لوحة ليوناردو دافنشي» فابتسمت، «لم أكن قبيحة، في وقت ما». وبنغمة غامضة إلى حد ما، باحت للممرضة: «كان لدي شعر جميل، كنت أمشطه على شكل عصابة حول رأسي.» وبدأت تتحدث عنها: كيف حصلت على دبلوم المكتبات، وحبها للكتب. فكانت الآنسة ليبلون ترد وهي تعد قارورة من المصل، كما أن السائل النقي يحتوي أيضًا، كما أوضحت،

مكتبة ياسمين

على الجلوكوز، والأملاح. فقلت «كوكتيل حقيقي».

طوال اليوم كنا نذهل أمي بالمشروعات. كانت تصغي وعيناها مغمضتان. شقيقتي وزوجها اشتريا مزرعة قديمة في «الألزاس» كانا سيقومان بتجديدها. وستشغل أمي غرفة كبيرة ومستقلة فيها، حيث ستكمل شفاءها. «لكن ألا يزعج ليونيل أن أبقى فترة طويلة؟ - بالطبع لا. - نعم، هناك، لن أزعجك. ففي شاراشبيرجن كنت صغيرًا للغاية، وكنت أزعجك.» تحدثنا عن ميرينياك. استعادت فيها ذكرياتها كامرأة شابة. وعلى مدى سنوات كانت تصف لي الزينة بحماس. كانت مغرمة جداً بجين، التي عاشت بناتها الثلاث الجميلات الأكبر واللاتي يتمتعن بالمرح والانتعاش والبهجة في باريس، وكن يترددن عليها كثيرًا لرؤيتها في العيادة. أوضحت للآنسة ليبلون: «ليس لدي حفيدات، وليس لديهم جدة». «لذلك أنا جدتهم» وبينما كانت نعسانة، نظرتُ في صحيفة. ففتحت عينيها وسألتني، «ماذا يحدث في سايغون؟» فحكيت لها عن ذلك. ذات مرة، وفي نبرة من العتب الممتع، قالت: «لقد عملوا لي العملية غدرًا!» وعندما دخل الدكتور P «ها قد أتى الجلاد» ولكن بنبرة ضاحكة. بقي بالقرب منها لحظة. وبينما كان يقول لها: «نحن نتعلم مهما كان العمر»، أجابت بنبرة مهيبة إلى حد ما: «نعم. تعلمت أنني مصابة بالتهاب الصفاق» فقلت لها مازحة، «أنت لست عادية! لقد أتيت لإصلاح عظم الفخذ، فأجروا لك عملية التهاب الصفاق!» - «بالفعل. أنا امرأة غير عادية!» وخلال بضعة أيام كانت تتسلى بسوء الفهم هذا: «لقد مثلتُ مقلبًا على الأستاذ» B فهو الشخص الذي كان عليه إن يجري لي عملية عظم الفخذ. والدكتور

P هو من يجري لي عملية التهاب الصفاق.»

إن الذي حرك مشاعرنا في ذلك اليوم، كان الاهتمام الذي توليه إلى أدنى الأحاسيس المرحة: كما لو أنها في سن الثامنة والسبعين تستيقظ من جديد بمعجزة من الحياة. وبينما كانت الممرضة تقوم بترتيب وسائدها، لامس الأنبوب المعدني فخذها: «إنه أمر رائع! هذا رائع!» كانت تشم رائحة الكولونيا والتلك: «إنها رائحة طيبة.» رتبت باقات الزهور وأصص الورد على الطاولة: «جُلبت الورود الحمر الصغيرة من ميرينياك. لا تزال هناك ورود في ميرينياك» طلبت منا رفع الستارة التي تغطي النافذة، فنظرت من خلال الزجاج إلى أوراق الأشجار الذهبية: «إنه لمنظر جميل، من المنزل لن أرى ذلك!» كانت تبتسم وكانت لدينا أنا وشقيقتي الفكرة ذاتها: لقد وجدنا الابتسامة التي أبهرت طفولتنا المبكرة، ابتسامة مشرقة لامرأة شابة. والآن، أين اختفت؟

قالت بوبيت «إذا كانت بضعة أيام تشعرها بالسعادة بكل بساطة، فمن المفيد تمديدها». لكن ما الفدية؟

«هذه غرفة الاحتضار»، فكرت في اليوم التالي. ستارة زرقاء ثقيلة كانت تحجب النافذة (كانت الستارة المعدنية مكسورة، ولم نتمكن من خفضها، ولكن قبل ذلك لم يزعج النور أمي.) كانت مستلقية في الظلام وعيناها مغمضتان، أمسكت بيدها فهمست: «هذه سيمون: لم أرك!» ذهبت بوبيت، فتحتُ رواية بوليسية. وبين الفينة والأخرى تتنهد أمي «أنا لست صافية الذهن» واشتكت إلى الدكتور P «أنا في غيبوبة». - «لو كنت في

مكتبة ياسمين

غيبوبة، ما كان بوسعك معرفة ذلك.» أراحها هذا الجواب. وأخبرتني لاحقًا، بطريقة تأملية: «لقد خضعت لعملية جراحية كبيرة. لقد أجريت لي عملية جراحية خطيرة.» فاستخففتُ بالأمر حتى هدأت شيئًا فشيئًا. حلمتُ في الليلة السابقة، فروت لي وهي يقظة: «كان هناك رجال في الغرفة، رجال يرتدون ثيابًا زرقًا، رجال أشرار، أرادوا أن يأخذوني بعيدًا، ويرغموني على أن أشرب شرابًا خليطًا كوكتيلًا. لكن أختك طردتهم...» لقد كنت ألفظ كلمة «اوكتيل» عن الخليط الذي أعدته الآنسة ليبلون. وكانت هذه ترتدي قبعة زرقاء؛ وكأن الرجال هم الممرضون الذين جلبوا أمي إلى صالة العمليات. «نعم. هذا على الأرجح...» طلبت مني فتح النافذة: «الهواء نقي منعش.» غردت الطيور، فشعرت بالانتشاء: «طيورا!» وقبل أن أتركها: «يا له من أمر عجيب. أشعر بضوء أصفر على خدي الأيسر، كما لو أن ورقة صفراء على خدي. ضوء جميل من خلال ورقة صفراء: إنه لطيف جداً» سألتُ الدكتور P، «هل كانت العملية بالذات ناجحة؟ – إنها ستنجح إذا استأنفت الأمعاء حركتها. وسنعرف ذلك في غضون يومين أو ثلاثة أيام.» كنت أتعاطف مع الدكتور P. وهو لم يتظاهر كونه ذا شأن، كان يتحدث إلى أمي مثلما يتحدث إلى أي شخص ويرد بلطف على أسئلتي. وبالمقابل، فإنني والدكتور N لا نحب بعضنا بعضًا. أنيق، رياضي، ديناميكي، مهووس بالتقنيات، أعاد إحياء أمي بحماس: لكنها كانت بالنسبة له موضوع تجربة مثيرة للاهتمام وليس إنسانًا. كان يخيفنا. فقد كانت لأمي قريبة كبيرة السن بقيت في غيبوبة منذ مدة ستة أشهر من الان. قالت لنا «أتمنى ألّا تسمحوا بأن

يطيل مكوثي هكذا، إنه أمر فظيع!». لو سجل الدكتور N رقمًا قياسيًا فسيكون خصمًا خطيرًا.» لقد أيقظ أمي ليجعلها تمشي ذهابًا وإيابًا، ومن دون نتيجة، فقالت لي بوبيت متألمة في صباح الأحد: «لماذا يعذبها؟» فأوقفت N في الممر. لم يكن يتحدث معي من تلقاء نفسه مرة أخرى، فناشدته: «لا تعذبها.» فأجابني بصوت ساخط «أنا لا أعذبها. إنما أنا أفعل الشيء الصحيح» كانت الستارة الزرقاء مرفوعة، والغرفة أقل ظلامًا. لقد اشترت أمي نظارات سوداء وعندما دخلت رفعتها: «آه! اليوم أراك!» كانت تشعر بالارتياح. فسألتني بصوت هادئ، «قولي لي، هل عندي جانب أيمن؟ – ماذا تعنين؟ – بالطبع. – يا له من أمر مضحك، بالأمس قيل لي إنني أبدو بصحة جيدة. لكني بدوت بخير على الجانب الأيسر فقط. كنت أشعر بالجانب الآخر كله بلا قيمة. بدا لي أنني لم أعد أمتلك الجانب الأيمن، لقد كنتُ مقسّمة. الآن تم إعادة تركيبه قليلًا.» لمستُ خدها الأيمن: «هل تشعرين بي؟ – نعم، ولكن كما في الحلم.» لمست خدها الأيسر: قالت لي: «هذا حقيقي». كسر عظم الفخذ، والجرح، والضمادات، والمسابر، والحقن، هذا كل ما كان يحدث على الجانب الأيسر. فهل كان السبب في أن الآخر لم يعد موجودًا؟ فأكدتُ: «أنت تبدين في صحة رائعة والأطباء سعداء بك – كلا، الطبيب N ليس سعيدًا: يريدني أن أطلق الريح عليه»، ابتسمت: «عندما أخرج من هنا، سأرسل له علبة من فضلات الشوكولاتة.» كان الفراش الهوائي يدلك بشرتها، ووضعت وساند صغيرة بين ركبتيها بدلًا عن الأغطية المرفوعة بوساطة طائرة، حتى لا تلمسها، وكان هناك جهاز اخر

يمنع عقبيها من لمس الفراش: ومع ذلك بدا جسدها مغطى بالتقرحات. لقد أصيب الوركان بالشلل بسبب هشاشة العظام، وكان نصف ذراعها اليمنى عاجزًا، ويسارها مربوط فيه جهاز التقطير، ولم تتمكن من أن تؤدي أدنى حركة. «اسحبيني،» طلبت مني. وحدي، لم أكن لأجرؤ. لم يعد عريها يزعجني: لم تعد أمي، بل جثة بائسة معذبة. ومع ذلك، كنت أشعر بأنني مرعوبة من اللغز الفظيع، من دون أن أتخيل أي شيء. كنت أهجس تحت ضمادات الشاش، بالخشية من إيذائها. في صباح ذلك اليوم كان يجب أن تحقن حقنة شرجية أخرى، وكانت الآنسة ليبلون بحاجة إلى مساعدتي. فأدركت أن ما تحت الإبطين هذا الهيكل العظمي الذي يرتدي جلدًا رطبًا أزرق. عندما نامت أمي على الجانب، كان وجهها يتقلص، وعيناها تنقلبان رأساً على عقب، تصرخ، «سأقع.» كانت تتذكر سقوطها. فوقفتُ عند سريرها، مسكتها وطمأنتها.

وضعناها على ظهرها، محشورة بين وساداتها. بعد مدة من الوقت قالت: «أخرجت ريحًا!» ثم طلبت: «أسرعوا! هاتوا لي بالحوض! حاولت كل من الآنسة ليبلون وممرضة ذات شعر أحمر وضعها على الحوض، فصرخت، عندما رأيتُ جلدها المكدوم والعظمة المعدنية الصلبة، شعرت وكأنها كانت مستلقية على شفرات من السكاكين. أصرت المرأتان، فسحبتاها، كانت الصهباء تعاملها بعنف وأمي تصرخ، وجسدها متوتر من الألم. فقلت لها «آه! اتركيها!» خرجتُ مع الممرضات: «سحقًا! دعنها تفعل ذلك في شراشفها – ولكن، احتجت الآنسة ليبلون، إنه إذلال كبير! المرضى لا يتحملون ذلك – ستبتل، وهذا ما يترك أثرًا سيئًا على تقرحاتها،

قالت الممرضة صاحبة الشعر الأحمر.- عليك أن تغيري ملابسها على الفور. ثم عدت إلى أمي: «مقرفة هذه المرأة صاحبة الشعر الأحمر» تأوهت بصوتها الطفولي. وأضافت، متأسفة: «ومع ذلك لم أكن أعتقد أنني حساسة! - لستِ كذلك» قلت لها: «عليك فقط أن تريحي نفسك، من دون حوض سيغيرون شراشفك، الأمر ليس معقدًا. - نعم» قالت لي. فأنشأت تقول وهي مقطبة الحاجبين عابسة، وبلمسة تصميم على وجهها، بما يشبه التحدي: «الموتى يبلون بلاء حسنًا في ملاءاتهم.»

لقد أخذت أنفاسي تتقطع. «يا له من إذلال» وأمي التي عاشت، مليئة بمشاعر الفخر، لم تشعر بأي خجل. وكان أيضًا شكلًا من أشكال الشجاعة، لدى هذه المتعالية التي تعتنق القيم الروحية، أن تتحمل طبيعتنا الحيوانية بقدر كبير من العزم.

لقد غيرنا لها ملابسها ونظفناها ودلكناها، وقد حان الوقت الآن لنعطيها الحقنة المؤلمة تمامًا، والمخصصة كما أعتقد لكبح اليوريا التي لم يتم القضاء عليها. كانت تبدو مرهقة لدرجة أن الآنسة ليبلون ترددت: فقالت لها أمي: «احقنيها بما أنها مفيدة لي.» فأدرناها إلى الجانب مرة أخرى، كنت أمسكها وأنظر إلى وجهها حيث أرى فيه شجاعة تمتزج بالأمل والقلق. «بما أنها مفيدة لي» للشفاء. للموت.

كنت أود أن أسأل الصفح من شخص ما.

علمتُ في اليوم التالي أن الأمور بعد ظهر ذلك اليوم سارت على ما يرام. فقد حل ممرض شاب محل الانسة ليبلون فقالت بوبيت لأمي، «أنت محظوظة أن يكون إلى جنبك مثل هذا

الممرض الشاب والطيب. – نعم، قالت أمي، إنه رجل وسيم. – وأنت كنت تعرفين عن الرجال! – أوه! ليس كثيرًا، قالت أمي، وفي صوتها حنين إلى الماضي... – كيف؟ تشعرين بالندم؟ – مهلًا! مهلًا! دائمًا ما أقول لبنات أختي الصغيرات: يا بناتي الصغيرات، استمتعن بالحياة.– أدرك لماذا يحبينك كثيرًا. لكنك ما كنت لتقولي ذلك لبناتك!» وفجأة عبست أمي: «إلى بناتي؟ آه! لا!». أحضر لها الطبيب P. امرأة في الثمانين عليه أن يجري لها عملية في اليوم التالي فكانت خائفة: فزجرتها أمي، وهي تعطيها مثالًا عن حالتها بالذات.

قالت لي في يوم الإثنين بنبرة ساخرة «إنهم يستخدمونني لأغراض الدعاية». ثم سألتني، «هل عاد جانبي الأيمن؟ أحقًا عندي جانب أيمن؟» فقالت شقيقتي – «بالطبع، نعم انظري إلى نفسك»، نظرت أمي في المرآة بنظرة متغطرسة لا تصدق: «هل هذه أنا؟ – بالطبع. نعم. يمكنك أن تري وجهك كله – أنا شاحبة – هذا بسبب الإضاءة. أنت جميلة» الواقع هو أنها بدت رائعة. لكن عندما ابتسمت للآنسة ليبلون، قالت لها: «آه! هذه المرة ابتسمت بفمي كله. وقبل ذلك كنت أشعر بنصف ابتسامة على وجهي فقط».

لم تبتسم بعد الظهر. وأخذت تردد عدة مرات بشكل غير متوقع وبملامة: «عندما رأيت نفسي في المرآة، وجدت نفسي قبيحة جداً!». في الليلة السابقة، حدث خطأ ما في جهاز التنقيط؛ كانت تجب إزالة الخرطوم ووضعه ثانية في الوريد؛ لقد ارتبكت الممرضة الخافرة؛ فالسائل يجري تحت الجلد، فصارت أمي في حالة يرثى لها. لففنا ذراعها المتضخم المزرق بالضمادات. ثم ربطنا

مكتبة ياسمين

الجهاز بذراعها اليمنى، كانت أوردتها المتعبة تحتمل المصل، ولكن البلازما كانت تمزقها من الآلام. في المساء، استولى عليها القلق: كانت خائفة من الليل، من حادث جديد، من الألم. كانت ملامحها متشنجة، فأخذت تتوسل، «راقبوا جهاز التنقيط!» ومرة أخرى في هذا المساء، وهي تحدق بذراعها التي تتدفق فيها حياة لم تعد سوى حياة من القلق والعذاب، فسألت نفسي: لماذا؟ في العيادة، لم يكن لدي الوقت لأستجوب نفسي. كان من الضروري مساعدة أمي على البصق، أو أناولها الشراب، أو ترتيب الوسائد وترتيب ضفيرتها، أو تحريك ساقها، أوسقي أزهارها، أو فتح وإغلاق النافذة، وأن أقرأ لها في الصحيفة، وأرد عن أسئلتها، وأملأ ساعتها التي كانت على صدرها، معلقة بحبل أسود. كانت تستمتع بهذه الاتكالية وتطلب العناية بها من دون كلل. ولكنني عندما عدت إلى البيت، وقع على كاهلي كل غم ورعب هذه الأيام القليلة الماضية. فأنا أيضًا يفترسني سرطان: الندم. «لا تدعيها تجري العملية.» وأنا لم أمنع أي شيء. في كثير من الأحيان، عندما يعاني المرضى من عذاب طويل، كنت أغضب من لامبالاة أقاربهم: «بالنسبة لي سأقتل هذه اللامبالاة». لكنني تعثرت في أول اختبار: لقد تخليت عن مبادئي الأخلاقية، وهزمتني الأخلاق الاجتماعية. قال لي سارتر: «كلا،» لقد هزمتك التقنية: وكان ذلك محتومًا. «في الواقع. نحن عالقون في دوامة، وعاجزون أمام تشخيص المتخصصين، وتوقعاتهم، وقراراتهم. لقد أصبح المريض من ملكيتهم، لذا اذهبوا واختطفوه منهم! ليس هنالك من بديل

مكتبة ياسمين

سوى بديل واحد فقط في يوم الأربعاء: إمّا العملية الجراحية أو القتل الرحيم. بقلب صلد، تم إنعاشها بقوة، كانت أمي تقاوم الانسداد المعوي لفترة طويلة وتعيش في الجحيم، لأن الأطباء كانوا يرفضون القتل الرحيم. كان يجب أن أكون هناك في السادسة صباحًا. ولكن حتى في ذلك الوقت، هل كنت سأجرؤ على أن أقول لـ N.: «دعها تنطفئ»؟ هذا ما كنت اقترحته عندما طلبت، «لا تعذبها،» فوبخني بعجرفة رجل متأكد من واجباته. كان بوسعهم أن يقولوا لي، «قد تحرمينها من عدة سنوات من الحياة.» فاضطررت للاستسلام. وأنا لم أكن مرتاحة لتلك الأفكار. كان المستقبل يرعبني. فعندما كنت في الخامسة عشرة مات عمي موريس بسرطان المعدة. قيل لي إنه كان يصرخ لعدة أيام: «اقتلوني، أعطوني مسدسي. وبي كونوا رحماء» هل سيفي الدكتور P بوعده: «بأنها لن تعاني»؟ بين الموت والتعذيب، كان السباق جاريًا. كنت أتساءل كيف تمكنا من البقاء على قيد الحياة عندما يصرخ شخص عزيز عليك عبثًا: « الرحمة!»

وحتى لو انتصر الموت، يا له من غموض بغيض! كانت أمي تظن بأننا جنبها، لكننا كنا بالفعل على الجانب الآخر من قصتها. بعبقرية خارقة كنت أعرف خفايا الأمور، بينما كانت تتخبط بعيدًا، في العزلة البشرية. عزمها على الشفاء، وصبرها، وشجاعتها، كل شيء كان خادعًا. لم تكن قد حصلت على أيّ من معاناتها. كنت أتطلع إلى وجهها «فبما أن الأمر خليق بي». كنت أعاني من خطأ ارتكبته بشكل يائس، من دون أن أكون مسؤولة عنه، ولم أتمكن من تعويضه مطلقًا.

أمضت أمي ليلة هادئة؛ ولم تترك الممرضة يدها، بعد أن رأت قلقها. وجدنا طريقة لوضعها على الحوض من دون أن نؤذيها. بدأت تتناول الطعام مرة أخرى وسرعان ما أُزيلت الحقن. «هذا المساء!» كانت تتوسل. «هذا المساء أو الغد»، قال N. في هذه الظروف، ستواصل الممرضة مشاهدتها والاعتناء بها، لكن أختي ستنام مع أصدقائها. سألت الدكتور P. النصيحة، وذلك لأن سارتر سيسافر جوًا في اليوم التالي إلى براغ، هل سأرافقه؟ «يمكن أن يحدث أي شيء وفي أي وقت. لكن هذا الوضع يمكن أن يستمر لأشهر. وعليه لا لا تغادري أبدًا. فبراغ ليست سوى ساعة ونصف الساعة من باريس ومن السهل الاتصال هاتفيا.» أخبرت أمي عن هذا المشروع: فقالت: «بالطبع! اذهبي، أنا لست بحاجة إليك. انتهى رحيلي بإقناعها بأنها كانت خارج دائرة الخطر: «لقد جاءوا بي من بعيد! التهاب الصفاق في الثمانية والسبعين عامًا! لحسن الحظ كنت هنا! لحسن الحظ لم أجر عملية لعظم الفخذ.» كانت ذراعها اليسرى المحررة من الضمادات قد خف منها الورم قليلًا. حملت يدها على وجهها بشكل مطبق، وتفحصت أنفها وفمها.

«كان لدي انطباع بأن عينيّ كانتا في وسط خديّ، وأنفي مائلًا، في أسفل وجهي. إنه لشيء مضحك...»

لم تعتد أمي على مراقبة نفسها، ولكن الآن يفرض جسدها عليها ذلك. ولأنها مثقلة بهذا العبء، لم تعد تحلق في السراب، ولم تعد تقول أي شيء يصدمني قط. فعندما كانت تتحدث عن بوسيكو، كان ذلك من أجل الشفقة على المرضى

مكتبة ياسمين

المرغمين على وجودهم في صالة مشتركة. كانت تنحاز إلى جانب الممرضات ضد الإدارة التي تستغلهن. وعلى الرغم من قسوة حالتها، بقيت مخلصة للرصانة التي تظهرها دائمًا. كانت تخشى أن تفرض كثيرًا من العمل على الآنسة ليبلون. فتشكر وتعتذر: «كل هذه الدماء التي تنفق على امرأة عجوز بينما يحتاجها الشباب!» كانت تلوم نفسها لأنها تأخذ بعضًا من وقتي: «لديك أشياء كثيرة يمكن أن تقومي بها، فأنت هنا تهدرين الساعات: هذا ما يزعجني!» كان هناك قليل من الفخر، ولكن في صوتها ندم أيضًا عندما قالت: «يا صغيراتي المسكينات! منحتكن العواطف! لابد كنتن تشعرن بالخوف» كانت تؤثر فينا أيضًا بمواساتها. وفي صباح الخميس، بالكاد أفاقت من الغيبوبة، بينما كانت الخادمة تحضر إفطار أختي، قالت بنفس مجهد: «الـ ... الـ ... – المعرّف؟ – كلا. المربّى»[*هناك تشابه بسيط في لفظ كلمتي Confesseur، وكلمة Confiture، الأولى تعني المعرّف (أي كاهن الاعتراف) والثانية تعني المربّى. م.*] مستذكرة شقيقتي التي كانت تتناوله في الصباح. كانت قلقة بشأن بيع كتابي الأخير. وعندما طرد مالك المنزل الآنسة ليبلون، قبلت أمي، بناء على اقتراح من أختي، أن تنتقل إلى الأستوديو الخاص بها؛ وعادة كانت لا تطيق أن يدخل أحد إلى بيتها في غيابها. كان مرضها قد حطم درع أحكامها المسبقة ومزاعمها: ربما لأنها لم تعد بحاجة إلى هذه الدفاعات. ولم تعد هناك مسألة تنازل أو تضحية: فأول واجباتها كان استعادة الاهتمام بنفسها؛ مستسلمة لرغباتها، ومتعتها ومن دون تردد، لقد تحررت أخيرًا من

الشعور بالاستياء. كان جمالها، وابتسامتها اللذان عادت إليهما الحياة، يعبران عن توافق مسالم مع نفسها، وبنوع من السعادة على سرير الألم هذا.

لاحظنا، على نحو طفيف، أنها لم تكن قد طلبت إلغاء زيارة كاهن الاعتراف يوم الثلاثاء. قبل وقت من عمليتها، قالت لمارت: «صلوا من أجلي، يا عزيزتي، لأنك تعلمين، عندما يكون المرء مريضًا، لا يمكنه أن يصلي بعد الآن.» ولا شك أن الشفاء كان يشغلها جداً من أجل أن تؤدي الطقوس الدينية. قال لها الدكتور N. يوماً: «لكي تستعيدي وضعك بسرعة، يجب أن تستعيني بالله! – أوه! أنا استعين به. لكنني لا أريد أن أمضي لمقابلته الآن». الحياة الأبدية تعني الموت على الأرض وكانت ترفض الموت. وبالطبع، كان المتدينون من حاشيتها يفترضون أننا نقف في الضد من إرادتهم فيحاولون بالقوة. على الرغم من اللافتة المكتوب فيها *الزيارات ممنوعة*، في الصباح رأت شقيقتي الباب ينفتح على رداء كاهن. فقمعته بشدة: «أنا الأب إبريل. لقد جئت كصديق. – لا يمنع. لكن الزي الذي ترتديه سيرعب أمي. وفي يوم الإثنين، اقتحام جديد: فقالت شقيقتي، وهي تقود السيدة مدام دي سان أنجي إلى الدهليز: «لا تستقبل أمي أي شخص». «وليكن. لكن يجب أن أناقش معك مشكلة خطيرة جداً: أنا أعرف قناعات أمك...» أنا أعرفها أيضًا، «قالت شقيقتي بقسوة. أمي تتمتع بكل عقلها. في اليوم الذي تريد فيه أن تقابل قساً، ستقابل أحدهم.» عندما سافرت إلى براغ صباح الأربعاء لم تكن قد تمنت ذلك بعد.

في الظهيرة، اتصلتُ: لذا أنت لم تسافري! قالت لي بوبيت، من الواضح أنها كانت تسمعني بوضوح. أمي بخير؛ الخميس أيضًا؛ الجمعة تكلمت معي، وهي مسرورة لأنني اتصلتُ بها من مكان بعيد جداً. قرأت قليلًا وحلّلت الكلمات المتقاطعة. لم أستطع إجراء مكالمة يوم السبت. وفي مساء الأحد، في الحادية عشرة والنصف طلبت رقم دياتو. بينما كنت أنتظر اتصالًا في غرفتي، حملوا لي برقية: «أمي متعبة جداً. هل يمكنك العودة؟». وقالت لي فرانسين: إن بوبيت كانت تنام في العيادة. بعد ذلك بقليل تأمن لي الاتصال: «كان يومًا فظيعًا»، قالت لي: «ظللتُ ماسكة بيد أمي التي كانت تتوسل لي، ألا تتركيني أموت. كانت تقول: لن أرى سيمون ثانية. والآن أعطوها أقراصًا لتخفيف التوتر وهي نائمة.»

طلبت من البواب أن يحجز لي مقعدًا على متن الطائرة التي تقلع في اليوم التالي في الساعة العاشرة والنصف. وقد أتممت إنجاز عدد من الالتزامات، نصحني سارتر بالانتظار ليوم أو يومين: مستحيل. ما كنت أريده وبشكل خاص أن أرى أمي مرة أخرى قبل وفاتها. لكن لا يمكنني تحمل فكرة أنها لن تراني مرة أخرى. لماذا يجب أن نولي أهمية كبيرة للحظة، بينما لن تكون هناك ذاكرة؟ ولن يكون هناك أي تعويض. فلقد أدركت بقدر ما يخصني، حتى في نخاع عظامي. أنه في اللحظات الأخيرة لشخص يحتضر يمكن للمرء قفل المطلق.

في الواحدة والنصف من يوم الإثنين دخلت الغرفة 114. وعندما علمت أمي بعودتي، ظنت أن

ذلك يتماشى مع خططي. خلعت نظارتها السوداء وابتسمت في وجهي. كانت منشرحة تحت تأثير المهدئات. لقد تغير وجهها؛ فبشرته كانت صفراء ونزلت جعدة منتفخة تحت عينها اليمنى، وعلى امتداد أنفها. ومع ذلك كانت هناك زهور جديدة على جميع الطاولات. والآنسة ليبلون غادرت، فأمي لم تعد بحاجة إلى أية عناية خاصة منذ أن أوقفوا التقطير. في مساء يوم رحيلي، بدأت الآنسة ليبلون بعملية نقل دم تطلبت ساعتين من الزمن: كانت الأوردة المنهكة لا تزال تتحمل دمًا أقل من البلازما. كانت أمي تصرخ لمدة خمس دقائق. فقالت بوبيت: «توقفي!». فعلقت الممرضة وقالت: «ماذا سيقول الدكتور N؟ – سأتحمل كل شيء على عاتقي» والحقيقة، فقد غضب N.: «التئام الجرح سيكون أبطأ.» غير أنه كان يعلم أن الجرح لن ينغلق؛ فشكّل ناسورًا من خلاله تتفرغ الأمعاء: وقد حال ذلك دون حدوث انسداد آخر لأن «الحركة» توقفت. كم من الوقت ستقاوم أمي؟ وفقًا للتحليلات كان الورم خبيثًا بمنتهى الضراوة. بدأ بالانتشار في جميع أنحاء الجسم. ومع ذلك، يمكن أن يستغرق تطوره مدة طويلة، مع أخذ عمرها بعين الاعتبار.

أخبرتني بآخر يومين. في يوم السبت بدأت بقراءة رواية لسيمنون وهزمت بوبيت في الكلمات المتقاطعة: على ماندتها كانت تتكدس الشبكات التي قطعتها من الصحف. وفي يوم الأحد، كانت قد أكلت بطاطا مهروسة لم تهضمها (في الواقع، كانت هذه هي بداية انبثاث المرض الذي دمرها). فأثارت كابوسًا طويلًا مؤرقًا: «كنت في ملاءة زرقاء فوق حفرة. وكانت شقيقتك تمسك

بالملاءة، توسلت لها: لا تدعيني أقع في الحفرة...
– فقالت بوبيت: أنا أمسك بك، لن تقعي». لقد أمضت الليل جالسة على الكرسي، وأمي التي تهتم عادة بنومها، تقول لها: «لا تنامي؛ لا تتركيني أموت. إذا نمت، أيقظيني، حينما أنام لا تدعيني أموت». وروت لي شقيقتي في إحدى المرات، أغمضت أمي عينيها، منهكة. فحكّت يديها الملاءات فأخذت تتلفظ، «لأعيش! لأعيش!»

وصف لها الأطباء دواء على شكل أقراص وحقن الـ «إيكونيل» لتخفيف التوتر. كانت أمي بأمس الحاجة إليها لكي تتجنب هذه الآلام. طوال اليوم كانت في مزاج ممتاز. وعلقت أيضًا على غرابة انطباعاتها: «كانت هناك دائرة أمامي ارهقتني. لم ترها شقيقتك. قلت لها، «أخفي الحلقة الدائرية هذه.» وهي لا ترى حلقة دائرية.» والحقيقة أنها كانت صفيحة معدنية صغيرة تم إصلاحها في إطار النافذة وكانت تحجب بانخفاضها الستارة قليلًا، وأخيرًا تم إصلاحها. استقبلت شانتاي وكاترين وقالت لنا بارتياح: «لقد أخبرني الدكتور P بأنني ذكية جداً؛ لقد قمت بأشياء بطريقة ذكية للغاية: أثناء معافاتي من العملية، التحم عظم الفخذ.» اقترحتُ في المساء، أن أحل محل شقيقتي التي بالكاد نامت في الليلة السابقة، لكن أمي كانت معتادة عليها، وتظن أنها أكثر كفاءة مني، لأنه سبق لها أن اعتنت بـ ليونيل.

مضى يوم الثلاثاء على ما يرام. وفي الليل، كانت الكوابيس تراود أمي. كانت تقول لشقيقتي: «وضعوني في صندوق». «أنا هنا، لكنني في الصندوق. أنا أنا، ولم أعد أنا. يحمل عدد من الرجال الصندوق!» كانت تتخبط: «لا تدعيهم يأخذوني

مكتبة ياسمين

بعيدًا!» وكانت بوبيت تضع يدها على جبينها لمدة طويلة: «أعدك لن يضعوك في الصندوق.» فطلبتُ حقنة إيكونيل إضافية. وفي النهاية تم إنقاذها من رؤاها، وعندها سألتها أمي: «ولكن ماذا يعني هذا الصندوق، وهؤلاء الرجال؟ - إنها ذكريات عن عمليتك: بعض المسعفين يأخذونك على نقالة.» نامت أمي، ولكن في الصباح كان في عينيها كل حزن المخلوقات العاجزة. عندما رتبت الممرضات سريرها ثم جعلنها تتبول بأنبوب، شعرتْ بالألم، وأخذت تتنهد. وعندها سألتني بصوت محتضر، «هل تعتقدين أنني سأنجو؟» فلمتها. وسألتِ الدكتور N بخجل: «هل أنت سعيد بي؟» فأجاب بنعم من دون أية قناعة، ولكنها تتشبث بهذه العوامة. إنها دائمًا ما تبتكر أسبابًا ممتازة لتبرير طغيان متاعبها. كان هناك الجفاف، والبطاطا المهروسة الثقيلة جداً؛ في ذلك اليوم كانت توبخ الممرضات لأنهن وضعن لها ثلاث ضمادات في اليوم السابق بدلًا من أربع: قالت لي: «كان الدكتور N. غاضبًا في الليل». «لقد وبخهن!» وكررت عدة مرات، بوداعة: «لقد كان غاضبًا! فقد وجهها نضارته. والتشنجات تحركه. وبانت في صوتها الضغائن والمطالب.

تنهدت وقالت: «أنا متعبة جداً». وكانت قد وافقت على استقبال شقيق مارت بعد الظهر اليسوعي الشاب. «هل تريدينني أن ألغي الزيارة؟ - لا. أختك ستكون مسرورة. وسيتحدثان عن اللاهوت، وأنا سأغض النظر، فلست بحاجة للكلام.» لم تتناول الغداء فقد نامت ورأسها محني على صدرها: عندما دفعت بوبيت الباب، ظنت أن كل شيء انتهى. بقي تشارلز كوردونييه خمس دقائق فقط. وتحدث عن مناسبات الغداء التي كان

مكتبة ياسمين

يدعو فيها والده أمي كل أسبوع: «إنني أتطلعُ إلى رؤيتكم في شارع راسبيل أحد أيام الخميس هذه.» «نظرتْ إليه، نظرة شك وأسف: هل تعتقد أنني سأعود؟» لم يسبق لي أن رأيت جوًا من البؤس على وجهها كهذا: في ذلك اليوم، خمنت أنها راحلة. وكنا نظن أن النتيجة بدت قريبة جداً حتى إنني عندما وصلت بوبيت لم أغادر. همست أمي، «لذا فإنني في حالة أسوأ، وأنتما هنا معًا. – نحن هنا دائمًا – ليس الاثنين معًا.» ومرة أخرى تظاهرت بأنني غير راضية: «أنا باقية لأن معنوياتك سيئة. ولكن إذا كان الأمر يزعجك، سأرحل.» – «لا، لا»، قالت لي بخجل. استأثُ من قسوتي الظالمة. في اللحظة التي كانت فيها الحقيقة تسحقها، وكانت بحاجة إلى تحرير نفسها بالكلمات، حكمنا عليها بالصمت وأجبرناها على إسكات مخاوفها لقمع شكوكها: وكانت تشعر في الوقت ذاته – كما في كثير من الأحيان في حياتها – بالخطأ وسوء الفهم. لكن لم يكن لدينا خيار: كان الأمل هو أول احتياجاتها. شعرت شانتاي وكاترين بالخوف من وجهها لدرجة أنهما اتصلتا بمدينة ليموج لإعلام أمهما بالعودة.

لم تستطع بوبيت الوقوف فقررت: «الليلة، سأنام هنا.» لقد بدت أمي قلقة «هل تعلمين؟ هل تعلمين كيف أني أضع يدي على جبهتي إذا راودتني الكوابيس؟ – بالطبع» تأملتْ، ونظرت إلي بشكل مركز، «أنت تخيفينني.»

لطالما كنت أروّع أمي إلى حد ما بسبب ما تكنه لي من احترام فكري حرمته عمدًا عن ابنتها الصغرى، وعلى العكس من ذلك: وفي وقت مبكر جداً، كانت حشمتها المتطرفة ترعبني. كنت طفلة

مكتبة ياسمين

متفتحة، ثم إنني رأيت شخصيات كبيرة على قيد الحياة، وكل شخصية كانت متقوقعة بين جدرانها الصغيرة الخاصة وأحيانًا تثقب فيها ثقبًا، وتسده بسرعة: «لقد منحتني ثقتها»، كانت تهمس أمي، بمظهر ذي شأن. أو سأجد صدعًا في الخارج: «إنها متكتمة، ولم تخبرني بشيء، لكن يبدو أنها... » وبما أن الاعترافات والثرثرة أحمل في طياتها شيئًا من السرية، فإنها تعدّ بالنسبة إلي أمرًا مقيتًا، فأردت أن لا تشوب جدراني شائبة. أما بالنسبة إلى أمي على وجه الخصوص فكنت أجتهد بأن لا أبوح لها بأي شيء، خشية إرباكها ورهبة من نظرتها. وحتى وقت قريب لم تعد تجرؤ على أن تسألني. فقد كان يتطلب شرحنا الوجيز عن عدم إيماني جهداً كبيراً من جانبينا.

لقد شعرتُ بالأسى وأنا أرى دموعها، لكن سرعان ما أدركتُ أنها كانت تبكي على فشلها بعدم اهتمامها بما كان يعتمل في داخلي. فثارت عليَّ مفضلة الرعب على الصداقة. كان من الممكن التوصل إلى تفاهم لو أنها بدلًا من أن تطلب من الجميع الصلاة من أجل روحي، أن تمنحني القليل من الثقة والتعاطف. أعرف الآن ما الذي يمنعها: كان لديها الكثير من الثأر الذي يجب أن تأخذه، والجروح لتشفى لكي تضع نفسها في مكان الآخرين. كانت تبذل نفسها في تصرفاتها، لكن عواطفها لم تخرجها من أعماقها. إلى جانب ذلك. كيف كان بوسعها أن تفهمني طالما تتجنب القراءة في قلبها؟ أما فيما يتعلق باختراع موقف لم يكن من شأنه أن يفككنا، فلم يعد له شأن بالنسبة إليها؛ كان يرعبها ما هو غير المتوقع، لأننا لم نعلمها أبدًا كيف تفكر، وتتصرف، وتشعر

إلا من خلال أُطر جاهزة.

لقد أصبح الصمت بيننا مبهمًا تمامًا حتى غادرت (الضيفة). لقد تجاهلتْ كل شيء في حياتي تقريباً. حاولت أن تقنع نفسها بأنني على الأقل في موضوع الأخلاق كنت «جادة». هدمت الشائعات العامة أوهامها، ولكن في ذلك الوقت تغيرت علاقتنا. كانت تعتمد ماديًا عليَّ. لم تتخذ أي قرار عملي من دون التشاور معي: كنتُ المعيل للعائلة، كابن لها. من ناحية أخرى كنت كاتبة معروفة. كانت هذه الظروف وغيرها تبرر ولو جزئيًا عدم انتظام حياتي، التي كانت، علاوة على ذلك، تقتصر في الحد الأدنى على أن: الزواج الحر أقل إثمًا من الزواج المدني. في كثير من الأحيان يصدمها محتوى كتبي، وتفخر بنجاحها. ولكن بسبب النفوذ الذي منحته لي حسب نظرها، فقد تفاقم انزعاجها. بغض النظر عن مدى تفادي أية مناقشة – أو ربما على وجه التحديد أنا من يتجنبها – ظنت أنني كنت أحسب لها حسابًا. وبوبيت، «الصغرى»، التي كانت أقل شأنًا مني – والتي لم يكن لديها أدنى ملمح من أمي، ولم ترث منها صلابتها، – كانت تشعر بعلاقات أكثر حرية معها. فتعهدت أن تقدم لها كل ما يمكن أن يهدئ من خواطرها عندما صدر كتابي (مذكرات فتاة شابة رصينة) أما بالنسبة إلي فقد اقتصرت على أن أحضرت لها باقة مع كلمة اعتذار: لقد تأثرت من ذلك وذُهلت. قالت لي ذات يوم: «الآباء لا يفهمون أطفالهم، ولكن هذا الأمر متبادل...» لقد تكلمنا عن سوء الفهم هذا، ولكن بشكل عام. لم نعد إلى الموضوع. كنت وأنا أطرق الباب، سمعت القليل من الأنين، واحتكاك نعليها على الأرض

مكتبة ياسمين

وتنهيدة، ووعدت نفسي بأن هذه المرة سوف أجد موضوعات للمحادثة ذات أرضية مشتركة. بعد خمس دقائق خسرنا اللعبة: كان بيننا القليل من الاهتمامات المشتركة! تصفحت كتبها: لم نقرأ الكتب ذاتها. فدفعتها للكلام، وكنت أستمع، وأعلق. ولكن لأنها كانت والدتي، لم تسرّني جملها المزعجة أكثر مما لو كانت قد خرجت من فم آخر. وكنت متوترة وكأنني في العشرين عندما كانت تحاول – بحماقتها المعتادة – أن تتظاهر بالعلاقة الحميمة: «أعلم أنكِ لا تظنين أنني ذكية لكن، على أية حال، فأنا الشخص الذي حصلت منه على حيويتك، وهذا ما يجعلني أشعر بالسعادة» وفيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة أود أن أتفق معها تمامًا؛ ولكن بداية جملتها كانت تقطع حماسي. وهكذا نشلّ بعضنا بعضًا. وهذا كل ما أرادت أن تقوله وهي تحيطني بعينيها: «أنتِ تخيفينني.» لقد ارتديت ثوب نوم أختي، وتمددت على السرير بجانب سرير أمي: وأنا أيضًا كانت المخاوف تساورني. أصبحت الغرفة قاتمة عند حلول الظلام، وبعد أن أنزلت أمي الستارة كانت مضاءة فقط بمصباح بجانب السرير، كنت افترض أن الظلمة لا تزال تكثف من الغموض الجنائزي. في الواقع، هذه الليلة والليالي الثلاث التي تلت، كنت أنام بشكل أفضل مما كنت في منزلي، بعيدة عن ضجر الهاتف واضطرابات خيالي: فأنا هنا، لم أفكر في أي شيء.

لم تراود الكوابيس أمي في الليلة الأولى، غالبًا ما تستيقظ وتطلب شرابًا وفي الليلة الثانية، كان عصعصها يؤلمها كثيرًا، وضعتها الانسة كورنو على الجانب الأيمن، لكن ذراعها أخذت تعذبها. ثم

مكتبة ياسمين

تم وضعها على حلقة مطاطية، تخفّف من مكان التقرحات، ولكنها يمكن أن تتلف الجلد من ناحية الأرداف، المزرقّة، والهشة جداً. نامت في يومي الجمعة، والسبت، بشكل جيد بما فيه الكفاية. وبدءًا من يوم الخميس، وبسبب الـ «إكونيل»، أخذت تشعر بالثقة مجددًا. لم تعد تطلب: «هل تعتقدين أنني سأنجو؟» ولكن: «هل تعتقدين أنني يمكن أن أعود إلى وضعي الطبيعي؟»، «آه! اليوم أراك! قالت لي بصوت فيه مسحة من الفرح؟ بالأمس لم أرك» في اليوم التالي، كانت جين قادمة من ليموج وجدت وجهها أقل تدميرًا مما كانت تخشاه. تحدثتا مدة ساعة تقريباً. وعندما عادت صباح السبت مع شانتال، قالت لهما أمي بنبرة رفيعة: «حسنًا! جنازتي ليست غدًا! سأعيش حتى المئة عام، سأضطر للانتحار.» كان الدكتور P في حيرة «مع حالتها لا يمكننا القيام بأي تنبؤات: لديها مثل هذه الحيوية!» نقلت لأمي الكلمة الأخيرة: هذه «نعم، لدي حيوية!» لاحظتْ بارتياح. أنها كانت متفاجئة بعض الشيء: «الأمعاء لم تعد تعمل والأطباء لم يبد أنهم يهتمون لذلك.» الشيء المهم هو أن الأمعاء قد عملت: وهذا يثبت أنها ليست مشلولة. فكان الأطباء سعداء جداً – إذا كانوا سعداء، فهذا هو المبدأ.

ليلة السبت، قبل أن ننام تحدثنا. «يا للغرابة»، قالت لي بطريقة حالمة، «عندما أفكر في الآنسة ليبلون، أراها في شقتي: إنها عارضة أزياء، منتفخة، بلا أذرع، كما في محلات التنظيف الجاف. أما دكتور P، فهو شريط من الورق الأسود على بطني. لذا عندما أراه بشحمه ولحمه أشعر بالغرابة» فقلت لها، «كما ترين، كنت قد اعتدت

مكتبة ياسمين

علي: وأنا لم أعد أخيفك. - لكن لا - قلت لي أنني أخفتك - هل قلتُ ذلك؟ يا لها من أشياء مضحكة.»

أنا أيضًا تعودت على هذا الحضور، فكنت أصل في الساعة الثامنة ليلًا، وكانت بوبيت تزودني بأخبار اليوم، مر الدكتور N. وجاءت الآنسة كورنو، وكنت أقرأ في الرواق بعدما غيرت الضماد. أربع مرات في اليوم، يأتون إلى الغرفة بطاولة متحركة مليئة بضمادات ربط الجراح والشاش والمناشف والقطن الطبي والأشرطة اللاصقة والصناديق الحديدية والأوعية والمقص؛ وكنت أنظر بدقة أثناء خروجها من الغرفة. كانت الآنسة كورنو، بمساعدة ممرضة من صديقاتها، ترتب حمام أمي وتثبته ليلًا. كنت أستلقي في السرير. وهي تزود أمي بحقن مختلفة، ثم ذهبتْ لتتناول فنجانًا من القهوة بينما كنت أقرأ، على ضوء مصباح السرير. ثم عادت وجلست بجانب الباب، الذي تركته مفتوحًا على خرطوم المدخل، للحصول على بعض الضوء؛ كانت تقرأ وتحوك. كنت أسمع ضوضاء طفيفة من الجهاز الكهربائي الذي يهز الفراش، فكنت أنام وأستيقظ في الساعة السابعة. خلال الضماد أدير وجهي نحو الحائط، مهنئة نفسي بالزكام الذي يسد أنفي: تعاني بوبيت من الروائح؛ أما أنا فلم أشعر بأي شيء تقريباً ما عدا عطور الكولونيا التي غالبًا ما أمسح بها على جبين أمي وخديها، وكانت تبدو لي طيبة ومثيرة للاشمئزاز: أبدًا ليس بوسعي استخدام هذه العلامة التجارية.

ذهبت الآنسة كورنو، أما أنا فارتديت ملابسي، وتناولت الغداء. وأحضرت لأمي دواء يميل لونه إلى البياض. قالت عنه إنه مثير للتقزز، لكنه

مكتبة ياسمين

كان يساعدها على الهضم. ثم ناولتها الشاي، ملعقة فملعقة، فتت فيها كسرًا من البسكويت. وكانت الخادمة قد رتبت الغرفة ونظفتها، وأنا كنت أسقي وأنسق الزهور. يدوّي رنين الهاتف في كثير من الأحيان؛ فأهرع إلى الرواق؛ وأغلق الأبواب خلفي، لكنني لم أكن متأكدة من أن أمي ستسمعني، فأتكلم بحذر. كانت تضحك عندما أخبرها، أن «السيدة رايموند سألتني كيف حال عظم فخذك؟ – يجب أن لا تعلم شيئًا!» غالبًا ما تتصل بي إحدى الممرضات: أصدقاء لأمي، وأقارب لها جاءوا للاطمئنان عليها. وعمومًا، لم تكن لديها القوة لاستقبالهم، ولكنها كانت سعيدة جداً لأنهم اهتموا بها. كنت أخرج في أثناء التضميد، ثم أطعمها الغداء: لم تستطع المضغ، كانت تأكل الهريسة، والخبز المهروس، واللحم المفروم، والفاكهة المطبوخة بالسكر، والكريمات. كانت تجبر نفسها على تناول صحنها كله: «يجب أن أتغذى.» بين الوجبات، تشرب مزيجًا من عصير الفاكهة الطازجة: «هذه فيتامينات. هذا مفيد لي»، وفي حوالي الساعة الثانية تأتي بوبيت: «أحب هذا الروتين كثيرًا». ذات يوم قالت بندم: «هذا سخف! كلاكما تحت تصرفي، أنا مريضة!»

كنت أكثر هدوءًا قبل براغ. فبالتأكيد حولت الرحلة من أمي إلى جثة حية. لقد اختزل العالم إلى حجم غرفتها: عندما كنت أجتاز باريس في سيارة أجرة، لم أعد أرى فيها سوى مشهد يتنقل فيه الناس. حياتي الحقيقية كانت تتجلى إلى جنبها لهدف واحد فقط: هو حمايتها. في الليل، كانت أدنى ضوضاء تبدو لي هائلة: حفيف الصحيفة التي تتصفحها الانسة كورنو، وخرخرة محرك كهرباني.

وخلال النهار كنت أمشي على جواربي. الغادون والرائحون على الدرج وفوق رؤوسنا يهشمون طبلة أذني. كنت أرى الفضائح، بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف النهار، تحطم الطاولات المتحركة التي تمر على قرص الدرج، محملة بأطباق من الحديد، وصفائح وأطباق كانت تتصادم بعضها ببعض. كنت أغضب عندما تطلب خادمة مغفلة من أمي المخدرة إعداد قائمة طعامها في اليوم التالي: أرنب مقلي أم دجاج مشوي؟ وأيضا عندما كانوا يجلبون اللحم المفروم البغيض جداً ظهرًا بدلا من المخ. كنت أشاطر أمي في تعاطفها: مع الآنسة كورنو، والآنسة لوران، والصغيرتين مارتن وبارن؛ وكانت مدام غونتراند تبدو لي أيضًا ثرثارة جداً: «فقد حكت لي أنها أمضت بعد ظهر يوم من إجازتها بشراء الأحذية لابنتها: ماذا تريدين مني أن أفعل؟» لم نعد نحب هذه العيادة. فالممرضات وهن يبتسمن ويجتهدن مرهقات بالعمل، ويتقاضين أجورًا متدنية، ومعاملة سيئة. فالآنسة كورنو تجلب قهوتها: وهم فقط يزودونها بالماء الساخن. ولم يكن لدى ممرضات الخفر غرفة للاستحمام أو حتى غرفة مغاسل لينعشن أنفسهن بعد ليلة كاملة. وحكت لنا الآنسة كورنو، منزعجة، عن مشاكلها مع المشرفة... فقد أنذرتها هذه ذات صباح لارتدائها حذاءً بنياً: «بلا كعب عال. – ولابد أن يكون أبيض» فبدت الآنسة كورنو مذلة مهانة، فصرخت بها المشرفة: «لا تتعبي نفسك قبل بدء يومك.» وحتى اليوم التالي، كررت أمي هذه الجملة بسخط: كانت دائمًا تنحاز طواعية إلى جانب هؤلاء ضد آخرين. في إحدى الليالي، دخلت صديقة الانسة كورنو الغرفة وهي تبكي، إذ قررت

مكتبة ياسمين

مريضتها ألا تتحدث إليها بعد الآن. إن المآسي التي تواجهها الفتيات الصغيرات مهنياً لا تجعلهن يشعرن بأدنى المآسي الصغيرة في حياتهن الشخصية.

«يشعر المرء بالخرف،» قالت بوبيت: «كنت غير مبالية بهراء المحادثات، وطقوس النكات،» يا لها من خدعة جيدة لعبتها على البروفيسور B! – «بهذه النظارات السوداء تبدين مثل غريتا غاربو.» لكن اللغة كانت تتعفن في فمي فشعرت وكأنني أمثل دورًا كوميديًا في كل مكان، فعندما تحدثت مع صديقة قديمة عن خطوتها التالية، بدا لي أن رسوم صوتي المتحركة مزيفة؛ وشعرت كما لو أنني أقوم بكذبة تقية عندما أخبرت مدير مصنع الجعة، بصدق: «لقد كانت جيدة جداً.» في أوقات أخرى، كان العالم يبدو كأنه يموه نفسه. كنت أرى فندقًا فيه عيادة؛ فأخذت خادمات الغرف بدلًا من الممرضات؛ وكذلك نادلات المطاعم: جعلوني أتبع علاجًا يتألف من الأكل. كنت أنظر إلى الناس بعين جديدة، مهووسة بالأنابيب المعقدة المخبأة تحت ملابسهم. وأنا نفسي، في بعض الأحيان، تحولت إلى مضخة شفط ودفع أو نظام من الجيوب والخراطيم.

كانت بوبيت تعيش على أعصابها. وأشعر أنا بحالة توتر، إذ يكاد ضغط الدم يصعد إلى رأسي. فما يشغلنا أكثر هو آلام أمي وشفاؤها وتناقضاتنا. في هذا السباق بين المعاناة والموت، كنا نأمل بشدة أيهما يأتي أولًا. ومع ذلك فعندما كانت أمي تنام، بوجهها الهامد، نشاهد بفارغ الصبر على ضوء أبيض خافت حركة الشريط الأسود الذي كان يربط ساعتها اليدوية: الخوف من التشنج

مكتبة ياسمين

النهائي يلوي معدتنا.

كانت بخير عندما تركتها يوم الأحد في وقت مبكر من بعد الظهر. وفي صباح يوم الإثنين، أرعبني وجهها الضامر؛ فقفز إلى نظري، عمل الأسراب الغامضة التي تلتهم خلاياها بين الجلد والعظام. في العاشرة مساء. دست بوبيت ورقة في يد الممرضة: «هل يجب أن أتصل بأختي؟» أشارت الممرضة برأسها بـ لا: القلب يعمل جيداً: لكن تتأهب عوامل جديدة من البؤس. فقد أطلعتني مدام غونتراند على الجانب الأيمن من أمي: هناك قطرات من الماء تنضح من المسام، وكان الغطاء منقوعًا. فهي لم تعد تتبول تقريباً، والورم ينفخ لحمها. كانت تحدق في يديها وتحرك أصابعها البدينة، فقلت لها: «إنه السكون».

لقد لاحظت أنها مرهقة بالأكونيل والمورفين اللذين هدّآ منها، لكنها تجملت بالصبر: «قالت لي شقيقتك شيئًا مفيدًا للغاية، في أحد الأيام عندما ظننت أنني أتعافى بالفعل: أخبرتني أنني سأكون متعبة مرة أخرى. لذا، أنا أعلم أنه أمر طبيعي.» استقبلت مدام دي سان أنج لدقيقة واحدة، فقالت لها: «أوه! الآن، أنا بخير!» فكشفت ابتسامة عن فكها: كانت بالفعل ابتسامة هيكل عظمي مروعة، في حين كانت عيناها تلمعان ببراءة محمومة إلى حد ما. بعد أن تناولت الطعام شعرتْ بتوعك. اتصلت بالممرضة هاتفيًا عدة مرات. ما أردته يتحقق، كانت تزفر وأنا في ذهول. قرص واحد يحييها.

في المساء تخيلت موتها، وشعرت بقلبي يقع. قالت لي بوبيت في الصباح: «يمكن القول إن ذلك

مكتبة ياسمين

أفضل حالًا فشعرت بالإرهاق». كانت أمي في صحة جيدة إلى درجة أنها قرأت بضع صفحات من سيمنون. في الليل عانت كثيرًا: «أنا أتألم في كل مكان!» فحقنوها بالمورفين.» وعندما فتحت عينيها أثناء النهار، كانت نظرتها نظرة كابية فاعتقدت، أن «هذه المرة، هي النهاية.» ثم خلدتْ للنوم ثانية. سألتُ N.، «هل هذه هي النهاية؟ – أوه! كلا، قال لي بلهجة مشفقة إلى حد ما، ونصف مفحمة: لقد رفعنا من معنوياتها بشكل جيد!» إذن، أكان الألم هو الذي يستولي عليها؟ *انقذني، أعطني مسدسي وأشفق علي*. كانت تقول: «إنني أشعر بالألم في كل مكان.» كانت تحرك أصابعها المتورمة قلقة. كانت تفقد الثقة: «هؤلاء الأطباء، بدأوا يزعجونني. دائمًا يقولون لي إنني أفضل حالًا. ولكنني أشعر بأنني في الأسوأ.»

لقد أصبحتُ متعلقة بهذه المرأة المحتضرة، وبينما كنا نتحدث في الظلام، كنت أخفّف من ندم قديم: استأنفت الحوار الذي تعطل أثناء مراهقتي، وخلافاتنا وتشابهنا لم يسمحا لنا أبدًا بالتجديد. والحنان القديم الذي كنت أعتقد أنه قد انطفأ تمامًا انبعث ثانية، حيث إنه كان من الممكن بالنسبة لها أن تنزلق في الكلمات والإيماءات البسيطة.

كنت أراقبها. كانت هناك، حاضرة، واعية، وجاهلة تمامًا بالتاريخ الذي عاشت فيه. عدم معرفة ما يجري تحت جلدنا أمر طبيعي. لكن مظهر جسدها الخارجي يهرب منها: بطنها الجريح، وناسورها، والقمامة التي تدفقت منه، ولون بشرتها الأزرق، والسائل الذي يرشح من مسامها. لم تستطع استكشاف ذلك بيديها شبه المشلولتين، وعندما

مكتبة ياسمين

عولجت، انقلب رأسها إلى الوراء. لم تعد تطلب المرآة: لم يكن وجهها المحتضر موجودًا. كانت تستريح وتحلم، على مسافة غير محدودة من جسدها المتعفن، تملأ أذنيها أصوات أكاذيبنا وتجمعنا جميعًا في آمال عاطفية: من أجل الشفاء. كان بودي أن أجنبها أي إزعاج لا داعي له: «أنت لست بحاجة إلى تعاطي هذا الدواء بعد الآن. – من الأفضل تعاطيه.» وكانت تبتلع السوائل الجصية. لديها مشكلة في تناول الطعام: «لا تجبري نفسك، هذا يكفي، توقفي. – أتعتقدين ذلك؟» كانت تتفحص الطبق، وتتردد: «أعطيني المزيد» وفي النهاية كنت أحاول أن آتي لها بصحن، قلت لها: «لقد أفرغته.» فكانت ترغم نفسها على تناول الزبادي بعد الظهر. غالبا ما تطلب العصير. كانت تحرك ذراعيها قليلًا، وترفع يديها وتقربهما، ببطء، وبحركة حذرة، على شكل كأس، فتمسك متلمسة الكأس التي كنت أمسكها. فتمتص بماصة الفيتامينات المفيدة: كان فم الغول يرتشف الحياة بشراهة. في وجهها الذابل، أصبحت عيناها متضخمتين. تحملق بهما، وتشل حركتهما؛ وبجهد جهيد تنتزع نفسها من متاهات نسيانها لترتفع إلى سطح بحيرات من الضوء الأسود. فتركز نفسها كليًا هناك. كانت تحدق في وجهي بثبات مأساوي: كما لو أنها اخترعت النظر «إني أراك!» كان ينبغي في كل مرة الفوز به على الظلمات. فمن خلاله تتشبث بالعالم، مثلما تمسك أظافرها بالملاءة، حتى لا تغرق. «أعيش. أعيش.»

كم كنت حزينة ليلة الأربعاء وأنا في سيارة الأجرة التي كانت تقلني، كنت أعرف عن ظهر قلب،

مكتبة ياسمين

هذا الطريق عبر الأحياء الجميلة: لانكوم، أوبيغان، هيرميس، لانفان. كثيرًا ما أوقفني الضوء الأحمر أمام متجر كاردين: رأيت، قبعات من اللبد، وصداري، وأوشحة، وأحذية، وأحذية نصفية، لأناقة مهجورة. وأبعد من ذلك ملابس جميلة، ألوان ناعمة، فكرت، «سأشتري لها رداء ليحل محل رداء البيت الأحمر.» العطور والفراء، والملابس الداخلية، والجواهر: غطرسة فاخرة لعالم ليس للموت فيه مكان، ولكنه كان يكمن خلف هذه الواجهة، في سر العيادات الكئيبة والمستشفيات والغرف المغلقة. ولم أعرف أي حقيقة أخرى.

في يوم الخميس، كما في كل يوم، أرعبني وجه أمي: كان محفورًا ومعذبًا أكثر من اليوم السابق. لكنها يمكن أن ترى. تفحصتني، «أنا أنظر إليك. شعرك بني بالكامل. – نعم، أنت تعرفين ذلك. – لأنك أنت وأختك كانت لديكما خصلة بيضاء كبيرة. كان ذلك حتى أتماسك ولا أقع.» حركت أصابعها: «الأعراف تنهى، أليس كذلك؟» لقد نامت. وعندما فتحت عينيها، قالت: «عندما أرى عنوانًا كبيرًا أبيض. عند ذاك أعرف أنني سأستيقظ. وعندما أغفو، أنام في التنورات الداخلية». أية ذكريات، وأية أوهام تجتاحها؟ كانت تعيش دائمًا في مواجهة العالم الخارجي، وقد هزت مشاعري وأنا أراها تائهة في نفسها فجأة. لم تعد تحب أن يبعدها أحد عن ذلك، وروت لها صديقتها الآنسة فوتييه، ذلك اليوم، بكثير من الحماسة قصة الخادمة الأجيرة، فابعدتها بسرعة، لأن أمي أغمضت عينيها. وعندما عدت، قالت لي: «لا تتحدثي عن قصصها للمرضى، فهي لا تهمهم.»

قضيت تلك الليلة بالقرب منها. بقدر ما كانت

مكتبة ياسمين

تخشى الألم كانت تخشى الكوابيس. عندما جاء الدكتور N طالبت: «إنهم يحقنونني، قدر ما يستلزم الأمر»، وهي تقلد إيماءة الممرضة التي ترمي الإبرة. «آه! آه! سوف تصبحين مدمنة مخدرات حقيقية!» قال N.، وبنبرة مازحة: «سأكون قادرًا على تزويدك بالمورفين بأسعار مخفضة للغاية.» كان وجهه مغلقًا، ومن ثم توجه إلي بصوت قاس: «هناك نقطتان لا يتهاون فيهما الطبيب الذي يحترم نفسه: المخدرات والإجهاض.» مر يوم الجمعة من دون قصة. وفي يوم السبت، نامت أمي طوال الوقت: «هذا أمر حسن، قالت لها بوبيت، لقد أخذت قسطًا من الراحة» فتنهدت أمي، «اليوم، أنا لم أعش.»

عمل شاق، بالنسبة للموت، عندما يحب المرء الحياة كثيرًا. قال لنا الأطباء في تلك الليلة: «يمكن أن تستمر لمدة شهرين أو ثلاثة.»

لذا، كان علينا أن ننظم أنفسنا، لتعتاد أمي على قضاء بضع ساعات من دوننا. بعد أن وصل زوجها إلى باريس في اليوم السابق، قررت أختي مغادرة أمي لتبقى بمفردها في تلك الليلة مع الآنسة كورنو، وستأتي مارت في الصباح، وعند الساعة الثانية والنصف، وأنا في الساعة الخامسة.

في الساعة الخامسة دفعت الباب. كانت الستارة منخفضة، وكان الجو شبه مظلم. كانت مارت تمسك بيد أمها، وهي متكومة على الجانب الأيمن، وتبدو في حيرة من أمرها، ومثيرة للشفقة. كانت قروح ردفها الأيسر نينة، هكذا وهي مستلقية، تعاني أقل، لكن عدم راحة موقعها كان يحطمها. كانت تنتظر زيارة بوبيت

مكتبة ياسمين

وليونيل حتى الساعة الحادية عشرة، على جزع، لأننا نسينا أن نعلق على ملاءتها حبل الجرس: كان الزر بعيدًا عن متناول يدها، ولم تكن لديها وسيلة للاتصال. جاءت صديقتها، السيدة تارديو، لرؤيتها، ولكن على الرغم من ذلك قالت أمي لشقيقتي: «تتركينني خادمة للوحوش!» (كانت تكره ممرضات يوم الأحد). ومن ثم استعادت طاقة كافية لمضايقة ليونيل: كنت تتمنى التخلص من حماتك؟ حسنًا! لم يحن الوقت بعد» بقيت وحدها لمدة ساعة، بعد غدائها، استولى عليها القلق مرة أخرى. قالت لي بصوت محموم: «يجب أن لا تتركيني وشأني، ما زلت واهنة جداً، لا تتركيني للوحوش – لن نتركك بعد الآن».

غادرت مارت، ونامت أمي. ثم استيقظت في عجلة من أمرها، كانت تشعر بألم في ردفها الأيمن. غيرت السيدة غونتراند من وضعها. ولكنها استمرت بالشكوى. حاولتُ قرع الجرس مرة أخرى: «لا داعي لذلك. أن تأتي السيدة غونتراند مرة أخرى. إنها لا تعرف.» لم تكن آلام أمي وهمية، لقد كانت أسبابها عضوية ودقيقة. وعلى أية حال، تحت عتبة معينة، كانت أفعال الآنسة بارن أو الآنسة مارتن تهدئ من تلك الآلام؛ بينما لا تريحها أفعال السيدة غونتراند، لكنها عادت للنوم. وفي السادسة والنصف تناولت بارتياح بعض الحساء والكريمة. وفجأة، صرخت، ردفها الأيسر يحترق. ولا عجب كان جسدها المسلوخ مغمورًا بحمض اليوريك الذي كان ينز من جلدها؛ فاحترقت أصابع الممرضات عندما غيرن وسادة فراشها. ضغطتُ الجرس فرنّ ورنّ الجرس، كنت مذعورة: كم كانت الثواني طويلة؟ كنت أمسك يد أمي،

مكتبة ياسمين

والمس جبهتها، قائلة: «سنحقنك حقنة واحدة. لن يؤلمك بعد الآن. دقيقة. دقيقة واحدة.» وهي تتلوى من الألم، على وشك الصراخ، كانت تتأوه: «إنه يحرقني، إنه فظيع، لا أستطيع الصمود. لن أصمد.» وفي نصف تنهيدة «أنا في حالة يرثى لها»، كان صوتها الطفولي يمزقني. كم كانت وحيدة! كنت ألمسها، أتحدث إليها، لكني لم أستطع الدخول في معاناتها. كان قلبها مذعورًا وعيناها جاحظتين، فكرت، «إنها تحتضر» همست، «سأفقد وعيي.» وأخيرًا، حقنتها السيدة غونتراند حقنة من المورفين، ولكن من دون نتيجة. اتصلت مجددًا، وكنت مرعوبة من أن الألم ربما يبدأ في الصباح، عندما لم يكن أحد جنب أمي وليس هناك أية وسيلة اتصال: لا يمكن تركها دقيقة. وهذه المرة أعطتها الممرضات الأكونيل، وغيرن وسادة الفراش، ودهنّ جراحها بمرهم كان يكسو أياديهن بانعكاسات معدنية. لقد اختفى الحرق، ولم يدم سوى ربع ساعة، وإلى الأبد. *لقد صرخت ساعات عديدة* «هذا سخف» قالت أمي «هذا غباء» نعم: غبي من يبكي. لم أعد أفهم الأطباء، ولا حتى شقيقتي ولا أنا. هذه اللحظات من التعذيب العقيم، لا شيء في العالم يمكن أن يبرر لهم.

في صباح يوم الإثنين تحدثت مع بوبيت على الهاتف: النهاية كانت قريبة. لم يتلاش الورم؛ والبطن لم ينغلق. والأطباء أخبروا الممرضات أن كل ما كان عليهن أن يفعلنه هو إرهاق أمي بمسكنات الألم.

في الساعة الثانية وأمام الباب 114 وجدت أختي مستشيطة غضبًا، قالت للآنسة مارتان: «لا تدعي أمي تعاني كيوم أمس. - ولكن يا

مكتبة ياسمين

سيدتي إذا أعطينا الكثير من الحقن، فقط من أجل التقرحات التي يسببها الفراش، ففي ساعات اشتداد الألم لن يعود المورفين يأخذ مفعوله.» وأوضحت بشكل عام، وهي متضايقة بالأسئلة، في الحالات المشابهة لحالة أمي يموت المريض في عذاب بغيض. *ارحمني اقتلني*. يا دكتور P. هل كنت تكذب؟ أحضر لي مسدسًا وأطلق النار على أمي واخنقها. يا لها من رؤى رومانسية وعقيمة. ولكن كان من المستحيل أيضًا بالنسبة لي أن أتخيل نفسي وأنا أسمع أمي تصرخ لساعات. «لنتكلم مع P» كان قادمًا فاستوقفناه: «لقد وعدتنا بأنها لن تعاني. – ولن تعاني» وأشار إلينا أنه إذا أردنا أن نطيل من أمدها بأي ثمن ونكفل لها مدة أسبوع من الألم المبرح، لكنّا في حاجة إلى عملية جديدة، وعمليات نقل دم، وحقن منشطة. نعم. حتى N. أخبر بوبيت في الصباح، «لقد فعلنا ما بوسعنا، طالما كانت الفرصة سانحة. والآن، فإن محاولة الإبطاء من وفاتها ستكون محاولة سادية». لكن هذا الرفض لم يكن كافياً لنا. فسألنا P. «هل سيمنع المورفين ألمًا عظيمًا؟ – سنعطيها الجرعات الضرورية» تكلم بحزم وألهمنا الثقة. فهدأنا. ذهب إلى غرفة أمي لتجديد ضماداتها: «إنها نائمة، قلنا له. – إنها لن تلاحظ حتى وجودي.» لا شك أنها كانت لا تزال نائمة عندما خرج. ولكن، وأنا أتذكر مخاوفها في اليوم السابق، قلت لبوبيت: «ينبغي أن لا تفتح عينيها وتجد نفسها وحدها. دفعت أختي الباب. التفتت إلي، شاحبة، وسقطت على المقعد وهي تنتحب: «لقد رأيت بطنها!» فأخذت أبحث لها عن علاج الأكونيل. عندما عاد الدكتور P، قالت له: «لقد

رأيت بطنها! انه لأمر فظيع! – لكن لا، هذا شيء طبيعي»، أجاب بقليل من الحرج... قالت لي بوبيت: «إنها تتعفن وهي حية»، ولم أسألها أية أسئلة. لقد تحدثنا ثم جلستُ بجانب سرير أمي وظننت أنها ميتة من دون اللهاث الخافت للحبل الأسود على بياض ثوبها الداخلي. وفي حوالي الساعة السادسة رفعت جفنيها: «لكن كم الوقت الآن؟ أنا لا أفهم. هل حل الليل بالفعل؟ – لقد نمتِ طوال الظهيرة – نمت ثماني وأربعين ساعة! – كلا» ذكرتها بأحداث اليوم السابق، نظرت من بعيد، من خلال زجاج النافذة، الظلام ولافتات النيون: «أنا لا أفهم،» كررت بمظهر مهين. أخبرتها عن الزيارات والمكالمات الهاتفية التي تلقيتها لها، قالت لي: «سيّان» كانت تجتر دهشتها: «لقد سمعت الأطباء. كانوا يقولون: يجب علينا أن نرهقها». ولأول مرة، كانوا يفتقرون إلى الحنكة. أوضحتُ لهم: من غير المجدي أن تعاني كالأمس. سنجعلها تنام كثيرًا بانتظار أن تشفى تقرحاتها. «نعم، قالت لي موبخة: لكنني أخسر أيامي.»

«اليوم، لم أعش. – أنا أخسر أيامي». فبالنسبة لها كل يوم يحتفظ بقيمة لا يمكن الاستغناء عنها. ستموت قريبًا. وهي تجهل ذلك، لكنني كنت أعرف، لم أكن لأستسلم بالنيابة عنها.

شربت القليل من الحساء وانتظرنا بوبيت: «لقد تعبتُ من النوم هنا». قالت أمي. – «كلا.» وتنهدت، «أنا لا أهتم». وبعد لحظة تأمل: «ما يقلقني هو أنني لا أهتم.» وقبل أن تنام ثانية سألتني بشكل مثير للريبة: «لكن هل يمكننا أن نرهق الناس؟» هل كان احتجاجًا؟ أعتقد أنها كانت تتمنى أن أطمئنها: لقد كان خمودها يدعو إلى

مكتبة ياسمين

الإثارة على نحو مصطنع ولم يشر إلى أي تراجع.

عندما حضرت الآنسة كورنو، رفعت أمي جفنيها. كانت عيناها تتدحرجان في محجريهما، فوسعت من نظرتها، وحدقت بالممرضة الخافرة بجاذبية أكثر إثارة من طفلة تكتشف العالم: «يا أنت، من تكونين؟ – إنها الآنسة كورنو. – لِمَ أنت هنا في هذه الساعة؟» فقلت لها مرة أخرى: «إنه الليل». استطلعت الآنسة كورنو بعينيها الواسعتين: «ولكن لماذا؟ – أنت تعرفين جيدًا: أقضي كل ليلة جالسة إلى جنبك.» فقالت أمي مع ظل من اللوم، «هنا! يا لها من فكرة غريبة! لقد جهزتُ نفسي للمغادرة، هل أنت مغادرة؟ – هل تمانعين لو ذهبت؟» وقالت لي مرة أخرى: «لا يهمني. أنا لا أهتم تمامًا».

لم أغادر على الفور، قالت الممرضات إن أمي لن تنجو خلال الليل. ارتفع النبض من 48 إلى 100. واستقرت حالتها حوالي العاشرة. بوبيت ذهبت إلى الفراش، وذهبت أنا إلى المنزل. كنت متأكدة الآن أن P لم يخدعنا: أمي ستنطفئ في بحر يوم أو يومين من دون كثير من الألم.

لقد استيقظت بوضوح. وبمجرد أن تتألم، كنا نهدئها. وصلتُ في الساعة الثالثة، وكانت نائمة، وشانتال على جانب سريرها: «شانتال المسكينة، قالت لي في وقت لاحق. لديها الكثير لتفعله وأنا أخذت من وقتها – لكنها تحب ذلك. إنها تحبك كثيرًا» تأملتْ أمي، وبدت منفعلة وآسفة فقالت، «لم أعد أعرف ما إذا كنت أحب أي شخص.»

تذكرتُ كبرياءها: «الناس يحبونني لأنني مرحة.» وشيئًا فشيئًا، أصبح العديد من الناس غير مرحب

بهم من قبلها. والآن ها هو قلبها مخدر تمامًا: لقد أخذ منها التعب مأخذًا. ومع ذلك، لم يثرني أي من كلماتها الحنونة سوى هذا الإعلان عن اللامبالاة. في السابق كانت الصيغ الملقنة، والسلوكيات التقليدية تتفوق على مشاعرها الحقيقية. فكنت أستطيع أن أرى فيها الدفء في البرد الذي كان يتركه الفقد في أعماقها. لقد نامت، التنفس غير محسوس لدرجة أنني حلمت: «إن كان يستطيع أن يتوقف بهدوء.» ولكن الحبل الأسود ارتفع وسقط مرة أخرى: لن تكون القفزة بهذه السهولة. أيقظتها في الساعة الخامسة، كما طلبت ذلك، لأعطيها الزبادي: «أختك تمسك به: إنه مفيد لي.» فأكلت منه ملعقتين أو ثلاثًا، كنت أفكر في الطعام الذي يوضع في بعض الأماكن على قبور الموتى. شممتها وردة جلبتها كاترين في اليوم السابق: «الوردة الأخيرة من ميرينياك.» ألقت نظرة مشتتة، ثم استغرقت في النوم. لقد تمزق بسبب الحروق. حقناها بالمورفين ولكن من دون نتيجة، وكما في اليوم السابق، كنت أمسك بيدها، وأحثها: «دقيقة واحدة. وتأخذ الحقنة مفعولها». وخلال دقيقة واحدة انتهى كل شيء: «إنه تعذيب صيني»، قالت بنبرة محايدة، ضعيفة جداً إلى حد الاحتجاج. ضربت الجرس مرة أخرى، وألححت: الحقنة الثانية. رتبت الممرضة السرير، وحركت قليلًا أمي التي عادت للنوم، ويداها متجمدتان. تذمرت الخادمة لأنني أعدت العشاء الذي كانت تحضره في الساعة السادسة: روتين العيادات الذي لا هوادة فيه حيث يتربع فيها الألم والموت كحوادث يومية. في السابعة والنصف، قالت أمي: «آه! الان أشعر أنني بحالة

جيدة. جيدة جداً. لم أشعر بهذا الشعور منذ وقت طويل». وصلت ابنة جين الكبرى وساعدتني كي تتناول بعض الحساء والقهوة. كان الأمر صعبًا، لأنها كانت تسعل: بداية الاختناق. نصحتني كل من بوبيت والآنسة كورنو بالمغادرة. ربما لن يحدث أي شيء في تلك الليلة وقد يقلقها وجودي. قبلتها، وقالت لي بواحدة من ابتساماتها البشعة، «أنا سعيدة لأنك رأيتني جيدًا!».

خلدتُ إلى النوم بعد منتصف الليل بنصف ساعة بعد أن تناولت قرصًا للنوم. ثم استيقظت على صوت رنين الهاتف: «لم يبق سوى بضع دقائق. ومارسيل يوصلك بالسيارة.» ومارسيل ابن عم ليونيل، فقادني عبر باريس المقفرة بأقصى سرعة. لقد تناولنا القهوة على منضدة حانة كانت تتوهج بالقرب من (بورت تشامبريت) جاءت بوبيت لمقابلتنا في حديقة العيادة: «انتهى الأمر.» صعدنا. كان الأمر متوقعًا، وغير معقول جداً، تلك الجثة المستلقية على السرير بدلًا من أمي. يدها وجبهتها كانتا باردتين. لقد كانت ما تزال هي، وغيابها إلى الأبد. كان الشاش يدعم الذقن، ويؤطر وجهها الخامل. أرادت أختي أن تأتي ببعض الملابس من شارع بلومت: «ما الفائدة؟ – يبدو أن هذا هو المطلوب – لن نفعل ذلك» لم أتخيل قط أن ألبّس أمي فستانًا وحذاء وكأنها ذاهبة للعشاء في المدينة، ولم أكن أظن أنها كانت تتمنى ذلك، فقد أعلنت في كثير من الأحيان أنها غير مهتمة برفاتها. «ليس سوى أن ترتدي إحدى تنوراتها الليلية الطويلة فحسب»، قلت للآنسة كورنو. «وخاتمها؟» سألت بوبيت وهي تأخذ الخاتم من درج الطاولة. أنضعه في إصبعها. لماذا؟ ربما

مكتبة ياسمين

لأنه لم يسع أي مكان على الأرض لهذه الحلقة الذهبية الصغيرة.

كانت بوبيت منهكة. وبعد النظرة الأخيرة على ما لم تعد أمي أخذتها بعيدًا بسرعة وتناولنا شرابًا مع مارسل في حانة (دوم). وروت القصة.

في الساعة التاسعة خرج N من الغرفة وقال بطريقة غاضبة: «فلت مشبك جراحي آخر. بعد كل ما فعلناه لها، هذا مزعج!» ثم غادر وترك شقيقتي مذهولة. وعلى الرغم من يديها المتجمدتين، كانت أمي تشتكي من كونها تشعر بحرارة عالية جداً وتتنفس بصعوبة. أعطيناها حقنة فنامت. خلعت بوبيت ملابسها، وخلدت للنوم، وتظاهرت بقراءة رواية بوليسية. وفي حوالي منتصف الليل، تحركت أمي. فاقتربت كل من بوبيت والممرضة الخافرة من سريرها. فتحت عينيها: «ماذا تفعلان هنا؟ لماذا تبدوان قلقتين؟ أنا بخير. – لقد راودك كابوس.» لامست الآنسة كورنو قدميها وهي ترتب شراشفها: ترددت شقيقتي في الاتصال بي. لكن حضوري في هذه الساعة كان ليخيف أمي التي كانت تحتفظ بصفائها. عادت إلى النوم. وفي الساعة الواحدة تحركت أمي مرة أخرى، وأخذت تهمهم بصوت متمرد تردد كلمات أغنية قديمة كان أبي يغنيها: «أنتِ راحلة وأنتِ تتركيننا.» فقالت بوبيت: «كلا، لن أتركك»، فابتسمت أمي ابتسامة ماكرة صغيرة. كانت تواجه صعوبة في التنفس. وبعد حقنة أخرى، همست بصوت عاطفي قليلًا، «ينبغي الاحتفاظ... بالخز... – هل علينا الاحتفاظ بالخزانة؟ – لا، قالت أمي. الموت.» *[للتوضيح: كانت تلفظ كلمة armor فظنت بوبيت أنها تعني armoir أي خزانة ولكنها عنت الموت La Mort –*

مكتبة ياسمين

م] وبعد أن شددت على كلمة «موت». أضافت: «أنا لا أريد أن أموت. – لكنك شفيت!» ثم أخذت تهذي قليلًا: «أتمنى لو كان لدي الوقت لتقديم كتابي... عليها أن تُرضع من تريد» ارتدت شقيقتي ملابسها: تكاد أمي تفقد وعيها، فصرخت فجأة «إني أختنق.» فتحت فمها، واتسعت عيناها، هانلتين في هذا الوجه المفرغ من لحمه: فدخلت في غيبوبة وهي في حالة متشنجة. فهتفت الآنسة كورنو: «هيّا اتصلي». اتصلت بي بوبيت، ولم أجب. ألحّ عامل الهاتف مدة نصف ساعة قبل أن أستيقظ. وفي هذه الأثناء. عادت بوبيت إلى أمي، غائبة بالفعل؛ وكان قلبها يخفق، وتتنفس، في حالة مستقرة، وعيناها تلمعان من دون أن ترى أي شيء. لقد انتهى كل شيء: «قال الأطباء إنها ستنطفئ مثل الشمعة: ليس كذلك، ليس كذلك على الإطلاق: قالت شقيقتي وهي تنتحب.– لكن، يا سيدتي، أجابت الممرضة الخافرة، أطمئنك هذا الموت موت عذب جداً.»

-5-

طوال حياتها كانت أمي تشعر بالخوف من السرطان، وربما كانت لا تزال خائفة منه، في العيادة، عندما تم تصويرها بالأشعة السينية. بعد العملية، لم تفكر في ذلك ولو للحظة. في بعض الأيام، كانت خائفة من أنها لن تنجو من صدمة قاسية جداً بالنسبة لعمرها. ولكن لم يساورها الشك: فقد أجريت لها عملية جراحية لالتهاب الصفاق الخطير ولكنه قابل للشفاء. ما أدهشنا أكثر من ذلك هو أنها لم تطلب أبدًا زيارة كاهن، ولا حتى في اليوم الذي تأسفت فيه: «لن أرى سيمون مرة أخرى!» لم تخرج من درجها كتاب الصلاة، والصليب، والمسبحة التي جلبتها لها مارت. وذات صباح اقترحت جين:

«إنه يوم الأحد يا عمة فرانسواز، ألا تشعرين برغبة في المشاركة؟ - أوه! يا عزيزتي، أنا متعبة جداً للصلاة، الله كريم!» وسألتها السيدة تارديو بإلحاح، في حضور بوبيت، فيما لو كانت تريد استقبال كاهن الاعتراف؛ فتصلب وجه أمي: «متعبة جداً»؛ وأغمضت عينيها لتغلق المحادثة. بعد زيارة صديقة قديمة أخرى، قالت لجين: «لويز المسكينة، تسألني أسئلة غريبة: سألتني إذا كان هناك قس في العيادة. أنت تدركين أنني لا أحفل بذلك!».

تحرشت بنا السيدة دي سان أنج: «بما أنها قلقة، يجب أن تغتبط بالمواساة الدينية. - إنها لا ترغب بذلك. - لقد جعلتني وأصدقاء آخرين نعد بمساعدتها على ميتة مريحة - في الوقت الراهن، ما تريده هو أن نساعدها على الشفاء»

مكتبة ياسمين

وكان اللوم يلقى علينا. من دون شك لم نمنع أمي من تلقي الطقوس الأخيرة، لكننا لم نفرضها عليها، كان يجب أن نحذرها، «أنت مصابة بالسرطان. أنت ستموتين.». بعض المتعصبين كانوا سيفعلونها، أنا متأكدة، إذا تركناهم وحدهم معها. (كنت أخشى لو كنت مكانهم إثارة خطيئة التمرد التي جلبت عليها قرونًا من العذاب) وأمي لا تريد هذه المواجهة وجهًا لوجه. كانت تتمنى ابتسامات شابة حول سريرها، وكانت تقول لبنات أختها: «نساء مسنات مثلي، بالوسع أن يكون لدي الوقت لرؤيتها عندما أكون في دار رعاية المسنين.». كانت تشعر بالأمان مع جين، ومارت، مع اثنتين أو ثلاث من الصديقات اللواتي يتظاهرن بالتقوى، ولكنهن يدركن ويستحسن أكاذيبنا. كانت تشك في الأخريات وتتحدث عنهن بلهجة قاسية: كما لو أنها، وبغريزة مدهشة، تخمن أي شكل من أشكال الوجود قد يزعجها: «هؤلاء السيدات من النادي، لن أذهب لرؤيتهن مرة أخرى. لن أعود إلى هناك».

يذهب بعض الناس إلى أن إيمانها كان سطحياً ولفظيًا فقط لأنها لم تواجه المعاناة والموت.

لا أعرف ما الإيمان، لكن كان الدين محور وجوهر حياتها: الأوراق التي وجدناها في أدراجها أكدت لنا ذلك. لو أنها رأت في الصلاة مجرد مواء آلي، لما تعبت من التسبيح بمسبحتها أكثر من حل أحجية الكلمات المتقاطعة. بل على العكس من ذلك، أقنعني تمنعها بأن الصلاة كانت من أجلها ممارسة تتطلب الاهتمام والتأمل وحالة روحية. كانت تعرف ما كان يجب أن تقوله للرب: «اشفني، ولكن إن كانت هذه مشيئتك: أقبل الموت». ولم

مكتبة ياسمين

تقبل. في لحظة الحقيقة هذه، ولم تكن تريد أن تنطق بكلمات غير صادقة. ومع ذلك لم تمنح نفسها حق التمرد. كانت صامتة: «الله كريم.»

قالت لي الآنسة فوتييه مرتعبة: «أنا لا أفهم، أمك المتدينة، والورعة جداً، وخائفة جداً من الموت!» ألم تعلم أن القديسات قد متن وهن يصرخن متشنجات؟ وأمي أيضًا لا تخشى الرب ولا الشيطان، فقط مغادرة الدنيا. جدتي رحلت. وقالت راضية: «سآكل آخر بيضة مسلوقة، وبعد ذلك سأقابل غوستاف.» ولم تكن حريصة أبدًا على الحياة؛ وفي سن الرابعة والثمانين، عاشت عيشة خاملة مشوبة بالكآبة: فالموت لم يزعجها. ولم يبد والدي أقل شجاعة، قال لي: «اطلبي من أمك ألّا تحضر قسيسًا. لا أريد التمثيل.». وقدم لي تعليمات بشأن بعض الأمور العملية. كان منهارًا، ومرهقاً، قبِل بالعدم بهدوء مثلما قبلت جدتي بالجنة. كانت أمي تحب الحياة مثلما أحبها، وهي تشعر بالتمرد أمام الموت كتمردي. تلقيت خلال معاناتها العديد من الرسائل التي علقت على كتابي الأخير: «إذا لم تفقد الإيمان، فلن يخيفك الموت كثيرًا.» كتب لي المحبون، رثاء مثيرًا للشفقة، ونبهني القراء الخيّرون: «إن الموت لا يعني شيئًا: سيظل عملكم قائمًا.» فأجبتهم من أعماقي بأنهم كانوا مخطئين. لم يعد الدين بالنسبة لأمي ولي الأمل في نجاح بعد الموت. فالخلود سواء تخيلته سماويًا أو دنيويًا، عندما يتمسك المرء بالحياة، لا يريحه الموت.

مكتبة ياسمين

-6-

ما الذي سيحدث لو اكتشف طبيب أمي السرطان في أعراضه الأولى؟ لا شك أنه كان سيعالجه بوساطة الأشعة لتعيش أمي سنتين أو ثلاث سنوات أخرى. لكنها كانت ستعرف أو على الأقل تشك في طبيعة مرضها ولكانت تجاوزت نهاية حياتها في الهلع. ما نأسف له هو أن خطأ الطبيب قد خدعنا؛ وإلا كانت سعادة أمي ستصبح أول اهتماماتنا. والصعوبات التي واجهتها جين وبوبيت خلال الصيف لم تكن في البال. لكنت رأيتها أكثر، ولكنت ابتكرت لها الملذات.

وهل نندم أم لا على أن الأطباء أنعشوها وأجروا لها عملية جراحية؟ لقد «كسبت» ثلاثين يومًا، وهي لا تريد أن تخسر يومًا واحدًا، فجلبوا لها الفرح، ولكن القلق والمعاناة أيضًا. وبما أنها هربت من الموت الذي ظننت أحيانًا أنه يهددها، فليس بوسعي أن أقرر نيابة عنها. بالنسبة لشقيقتي، كان يمكن أن يكون فقدان أمي صدمة لن تتعافى منها في اليوم الذي استردتها فيه. وماذا عني؟ تركت لي الأسابيع الأربعة هذه صورًا، وكوابيس، وحزنًا ما لا قبل لي به لو ماتت أمي صباح الأربعاء. لكنني لم أستطع قياس الصدمة التي سأشعر بها عندما انفجر حزني بطريقة لم أتوقعها. لقد حققنا مكسبًا معينًا من هذا التأجيل: لقد نجونا – أو نكاد – من الندامة. فعندما يختفي شخص عزيز، ندفع ثمن ألف ندم مؤلم لخطأ البقاء على قيد الحياة. ويكشف لنا موته عن خصوصيته الفريدة؛ فبالنسبة إليه يصبح الأمر شاسعًا كالعالم الذي يفنيه غيابه، وأن حضوره يجعل كل شيء

موجودًا؛ ويبدو لنا أنه كان يجب أن يحتل مساحة أكبر في حياتنا: في حدود كل مكان. نحن نبتعد عن هذا الدوار: لقد كان مجرد فرد واحد من بين آخرين. لكن بما أننا لا نفعل كل ما في وسعنا، لأي أحد – حتى في الحدود المختلف عليها، والتي نتوقف عندها. – فلا يزال لدينا الكثير من اللوم الذي يواجهنا، وفي السنوات الأخيرة كنا مذنبين بشكل خاص بالإهمال والإغفال والإحجام إزاء أمي. وبدا لنا أننا تخلصنا من ذلك في الأيام التي كرسناها لها، وبالسلام الذي وهبه حضورنا لها، وبفضل الانتصارات التي حققناها ضد الخوف والألم. فمن دون سهرنا العنيد، لكانت تعاني أكثر بكثير. في الواقع، وعلى سبيل المقارنة، كانت وفاتها عذبة. «لا تتركيني للوحوش». كنت أفكر في كل أولئك الذين لا يستطيعون مخاطبة أي شخص بهذه الدعوة: ما هو الألم الذي يشعر به تجاه شيء لا حول له فيه ولا قوة، كل ذلك تحت رحمة الأطباء غير المكترثين والممرضات المرهقات. لا يد تمتد على جباههم عندما يستولي عليهم الرعب؛ ولا مهدئ عندما يمسكهم الألم؛ ولا ثرثرة كذوبة لملء صمت العدم. «في غضون أربع وعشرين ساعة شاخت أربعين سنة.» كنت مهووسة بتلك العبارة أيضًا. ولا يزال هناك الآن – لماذا؟ – ألم فظيع. وبعد ذلك، في الصالات المشتركة، عندما تقترب الساعة الأخيرة، يحيطون سرير المحتضر بالشاش، وقد رؤي هذا الشاش حول أسرة أخرى كانت في اليوم التالي فارغة: يعرف. تخيلت أمي معمية لساعات بتلك الشمس السوداء التي لا يمكن لأحد أن ينظر إليها: رعب عينيها الواسعتين، وبؤبؤي عينيها المتوسعين. كانت تشعر بموت

مكتبة ياسمين

عذب جداً، بميتة متميزة.

-7-

نامت بوبيت في بيتي وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم عدنا إلى العيادة: وكما الحال في الفنادق، كان لا بد من إخلاء الغرفة قبل الظهر. ومرة أخرى صعدنا الدرج، دفعنا بابين: كان السرير فارغًا. والجدران، والنافذة، والمصابيح، والأثاث، وكل شيء في مكانه، ولا شيء على بياض الملاءة، أن تتنبأ، لا يعني أنك تعرف: كانت الصدمة قاسية، وكأننا لم نتوقع ذلك. أخذنا الحقائب من الخزانة وحزمنا فيها الكتب، والملابس، وأدوات النظافة، والأوراق: ستة أسابيع من الحميمية المتعفنة بالخديعة. تركنا الفستان الأحمر، عبرنا الحديقة. وفي مكان ما، تحت الأرض، كانت المشرحة مخبأة في المساحات الخضراء، وفي داخلها جثة أمي برباط ذقنها. وبوبيت، التي عانت – بمحض إرادتها، وأيضاً بالمصادفة – من أقسى الصدمات، كانت منهكة تمامًا ولذلك اقترحت عليها أن تراها مرة أخرى. أما أنا فلم أكن متأكدة إن كنت أريد ذلك.

وضعنا الحقائب في شارع بلومت لدى البواب. اكتشفنا شركة شؤون الجنائز: «هناك وكذلك في مكان آخر.» استعلم سيدان اثنان يرتديان ثيابًا سوداً عن رغباتنا. عرضا علينا، من خلال الصور، نماذج مختلفة من التوابيت: «هذا أكثر جمالية.» فأخذت بوبيت تضحك وتنتحب: «أكثر جمالية! ذلك الصندوق! لم تكن تريد منا أن نضعها في هذا الصندوق!» تم تحديد موعد الدفن يوم الجمعة. هل تبتغون الزهور؟ قلنا نعم، من دون أن نعرف لماذا: لا صليب، لا تاج، ولكن حزمة كبيرة. ممتاز.

لقد اعتنوا بكل شيء في فترة ما بعد الظهر أخذنا الحقائب إلى الشقة؛ التي حولتها الآنسة ليبلون؛ بشكل أنظف، وأكثر بهجة، بالكاد تعرفنا عليها: نِعم الحدث. وضعنا الحقيبة في الخزانة التي تحتوي على مصباح القراءة وقمصان النوم، والكتب، وكنت رميتُ الكولونيا، والحلويات، وأدوات النظافة، وأحضرت ما تبقى إلى المنزل. وفي الليل. كنت أواجه صعوبة في النوم. لم أندم على ترك أمي على هذه الكلمات الأخيرة: «أنا سعيدة لأنك رأيتني بخير.» لكنني كنت ألوم نفسي على تركي لجثتها على عجل. كانت تقول، وأختي أيضًا: «إن الجثة، لم تعد شيئًا.» وعلى أية حال كان لحمها، وعظامها ولبعض الوقت ما يزال وجهها. بالنسبة لوالدي، فقد وقفت إلى جانبه حتى أصبح شيئًا بالنسبة لي؛ وكنت قد روضت المرور من الوجود إلى العدم. أما أمي، فلقد غادرتها مباشرة بعد أن قبلتها ولهذا السبب يبدو أن شخصها ما زال يرقد وحيدًا في براد المشرحة. وإن وضعت في التابوت بعد ظهر اليوم التالي: هل أحضر؟

ذهبت إلى العيادة، حوالي الساعة الرابعة، لدفع الفاتورة. كان هناك بعض البريد لأمي وكيس من فطائر الفواكه. صعدت إلى الأعلى لأودع الممرضات فوجدت مارتن وبارن يضحكان في الرواق. فانعقدت حنجرتي وبالكاد استطعت انتزاع كلمتين. مررت أمام الباب 114، فرأيت اللافتة قد رفعت: *الزيارات ممنوعة*. في الحديقة، ترددت للحظة: أفتقر إلى الشجاعة، وما فائدتها؟ فمضيت. رأيت متجر كاردان وفساتين النوم الجميلة. كنت أقول في نفسي إنني لن أجلس بعد الان في الدهليز، ولن أرفع الحاكية البيضاء،

مكتبة ياسمين

ولن أقوم بهذه الرحلة بعد الآن؛ ولكنت قد تخليت عن هذه العادات بكل سرور لو شفيت أمي؛ ولكنني ظللت أحن إليها وكأنني فقدتها بفقدانها.

أردنا توزيع الهدايا التذكارية لأصدقائها. أمام كيس من القش، مليء بالصوف والحياكة غير المنجزة، وأمام نشافتها، والمقص، والكشتبان، طغت علينا مشاعر العاطفة. معروفة هي قوة الأشياء: الحياة متجمدة فيها، وأكثر حضورًا من أية لحظة من لحظاتها. كانت أشياء ملقاة على طاولتي، يتيمة، وعديمة الفائدة، بانتظار أن تتحول إلى نفايات، أو أن يجدوا لها حالة مدنية أخرى: هي عدتي، من العمة فرانسواز. أهدينا ساعتها لمارت. وبعد أن نزعنا الحبل الأسود، أجهشت بوبيت بالبكاء: «إنه لأمر سخيف، فأنا لست متيمة، لكني لا أستطيع رمي هذا الشريط. - احتفظي به.» ليس هناك حاجة إلى التظاهر بدمج الموت في الحياة والتصرف بعقلانية في مواجهة شيء لم يكن له: إن كل شخص يتدبر أمره بطريقته الخاصة في فوضى مشاعره. أفهم جميع الرغبات الأخيرة، فضلًا عن أننا لا نملك منها شيئًا. إننا نحتجز العظام في أحضانهم، أو أننا نتخلى عن جسد الكائن الذي نحبه للقبر المشترك. لو كانت أختي تريد أن ترتدي ملابس أمها أو تريد أن تحتفظ بخاتم زواجها، لكنت اعترفت بردود فعلها وردود فعلي. وفيما يخص الجنازة، لم يكن لدينا سؤال لنسأل أنفسنا. كنا نظن أننا نعرف رغبات أمي فامتثلنا. فضلًا عن ذلك كنا نواجه صعوبات مروعة. لقد امتلكنا في بير-لاشيز حكرة أرض دائمة، اشترتها السيدة مينيوت شقيقة الجد

مكتبة ياسمين

الأكبر قبل مئة وثلاثين عامًا. ودفنت فيها، جنبًا إلى جنب جدها، وزوجته وشقيقه وعمي غاستون، وأبي. ولم يعد فيها مكان. في مثل هذه الحالة، يدفن المتوفى في قبر مؤقت وبعد أن تجمع عظام أسلافه في تابوت واحد، يدفن في قبو العائلة. ومع ذلك، بما أن أرض المقبرة مكلفة جداً، فإن الإدارة تحاول استعادة حكرة الأرض الدائمة: يتطلب من المالك تجديد تأكيد حقوقه كل ثلاثين عامًا. غير أن الموعد النهائي قد انتهى. ولأنه لم يتم إخطارنا في الوقت المناسب بأننا قد نخسرها، لذلك احتفظنا بها: شريطة عدم وجود أحفاد من السيدة مينيوت الذين يمكن أن ينازعونا عليها. وإلى أن يثبت كاتب العدل ذلك، سيتم الاحتفاظ بجثة أمي في مستودع.

كنا نخشى المراسم في اليوم التالي. تناولنا المهدئات، ونمنا حتى الساعة السابعة، وشربنا الشاي، وأكلنا، وتناولنا المهدئات مجددًا. وقبل الساعة الثامنة بقليل، توقفت شاحنة سوداء في الشارع المهجور: كانت قد ذهبت قبل الفجر إلى الجثة التي أخرجوها من العيادة من باب خلفي. اجتزنا ضباب الصباح البارد، كنا نجلس، بوبيت بين السائق وأحد السادة يدعى دوران، وأنا في الخلف، بجانب ما يشبه صندوقًا معدنيًا: «هل هي هنا؟» سألت أختي. «نعم.» فقالت لي وهي تتنهد تنهيدة قصيرة: «الشيء الوحيد الذي يواسيني، هو أنني أيضًا سأنتهي إلى هنا. ومن دون ذلك، لن يكون عدلًا!» نعم. كنا نحضر البروفة العامة لجنازتنا. ولسوء الحظ أن هذه المغامرة مشتركة بين الجميع، وكل واحد يعيشها بمفرده. لم نترك أمي خلال هذا العذاب الذي خلطت بينه وبين

مكتبة ياسمين

النقاهة وكنا منفصلين عنها بشكل جذري.

خلال اجتيازنا باريس، كنت أتطلع إلى الشوارع والناس، مع الحرص على عدم التفكير في أي شيء. السيارات كانت تنتظر عند باب المقبرة: العائلة. ثم تبعونا إلى الكنيسة. ترجل الجميع. بينما كان الحانوتيون يخرجون التابوت، سحبتُ بوبيت نحو شقيقة أمي، ووجهها محمر من الحزن. ذهبنا في موكب. الكنيسة كانت مليئة بالناس. لا توجد أزهار على المنصة، فقد تركها المقاولون في الشاحنة: كان ذلك غير مهم.

ألقى قس شاب، كان يرتدي سروالاً تحت لباسه الكهنوتي القداس ثم ألقى كلمة قصيرة اتسمت بطابع غريب من الحزن: «الله بعيد جداً»، على حد تعبيره. «حتى بالنسبة لأولئك الذين من بينكم حيث يكون إيمانهم أقوى، هنالك أيام يكون فيها الله بعيدًا لدرجة أنه يبدو غائبًا. حتى يمكن للمرء أن يصفه بالإهمال. لكنه أرسل لنا ابنه.» لقد جهزنا كرسيين للصلاة من أجل قداس تناول القربان. تناول الجميع تقريباً القربان المقدس. وتحدث القس قليلًا. فسيطرت العاطفة علينا نحن الاثنتين عندما قال: «فرانسواز دي بوفوار»، كانت هذه الكلمات تستعيد حياتها، من الطفولة إلى الزواج، إلى الترمل، إلى التابوت؛ فرانسواز دي بوفوار: أصبحت شخصية، هذه المرأة المغمورة، التي من النادر أن يُعلن عن اسمها.

كان الناس يسيرون، وكانت بعض النسوة يبكين. وكنا لا نزال نتصافح عندما سحب الحانوتي التابوت من الكنيسة، هذه المرة رأتها بوبيت فانهارت على كتفي: «لقد وعدتها بأننا لن نضعها في هذا

الصندوق» هنأت نفسي على أنها لم تضطر إلى تذكر هذه الصلاة الأخرى: «لا تدعيني أسقط في الحفرة!» شرح أحد السادة ويدعى دوران للجمهور أن كل ما كان عليهم فعله هو أن يتفرقوا. اهتزت عربة الموتى، وأنا وحدي فقط، لا أعرف حتى أين أتجه.

في ورقة التدوين التي أحضرتها من العيادة وجدت سطرين رسمتهما أمي على شريط ضيق من الورق، «أريد جنازة بسيطة جداً. لا زهور،لا أكاليل لكن الكثير من الصلوات» حسنًا! لقد نفذنا وصاياها الأخيرة، ولاسيما أننا نسينا الزهور بكل إخلاص.

لماذا هزتني وفاة والدتي بعنف، منذ أن غادرت المنزل، ألهمتني ببعض الدوافع والحيوية. فعندما فقدتُ أبي، تأثرت بكثافة وبساطة حزنها، وكذلك اهتمامها، فكانت تقول لي: «فكري بنفسك»، على افتراض أني كنت أمسك دموعي حتى لا أزيد من حدة ألمها. وبعد عام من ذلك، ذكّرتها معاناة والدتها بصورة مؤلمة بعذاب زوجها: ففي يوم الجنازة، كانت في السرير بسبب انهيار عصبي. لقد قضيت الليل بجانبها؛ ونسيت اشمنزازي من سرير الزفاف الذي ولدتُ فيه، وحيث توفي والدي عليه، كنت أتطلع إليها وهي نائمة؛ في الخامسة والخمسين من العمر، وعيناها مغمضتان، ووجهها هادئ. كانت لا تزال جميلة؛ فكنت معجبة بأن عنف عواطفها قد استولى على إرادتها. عادة ما كنت أفكر فيها بلا مبالاة. رغم ذلك في نومي – وبينما كان أبي يظهر بشكل نادر جداً وبطريقة هامشية – كانت تلعب دورًا أساسيًا في أغلب الأحيان: كانت تندمج مع سارتر، وكنا سعداء معًا. ثم تحول الحلم إلى كابوس: لماذا أعيش معها مرة أخرى؟ كيف عدت تحت رحمتها مرة أخرى؟ إذن كانت علاقتنا القديمة باقية في داخلي من خلال وجهين هما: التبعية المحببة والمقيتة. لقد انبعثت هذه التبعية بكل قوتها في أثناء حادث أمي، ومرضها، وحطمت نهايتها الروتين الذي نظم علاقتنا حتى الآن. وراء أولئك الذين يتركون هذا العالم، يتلاشى الزمن؛ فكلما تقدمت في العمر، تقلص زمني الماضي. لم تعد تبدو «أمي العزيزة الصغيرة» في سنواتي العشر المرأة العدانية

التي اضطهدتني في سن المراهقة؛ بكيت من أجلهما حينما بكيت على أمي العجوز. عادت مرارة خيبتنا، التي اعتقدت أنني أذعنت لها، فأصابت مني القلب. أنظر إلى صورتينا، اللتين تعودان إلى الفترة ذاتها. كنت في الثامنة عشرة، وهي على وشك أن تبلغ الأربعين. يمكنني القول إنني اليوم قد أكون أمها إلى حد ما وجدة تلك الفتاة ذات العينين الحزينتين. أشعر بالأسى من أجلهما، من أجلي لأنني صغيرة جداً ولم أدرك بعد، ومن أجلها لأن مستقبلها قد انتهى ولم تفهم أي شيء أبدًا. لكن ليس بوسعي إسداء أي نصيحة. ولم يكن بمقدوري أن أمحو سوء حظ الطفولة التي حكمت عليها أمي فجعلت من حياتي تعيسة وأعاني منها بالمقابل. لأنها لو كانت قد سممت عدة سنوات من حياتي، فمن دون أن أفكر بذلك، رددت عليها بالمثل. لقد عذبت نفسها من أجل روحي. في هذا العالم، كانت سعيدة بإنجازاتي، لكنها تأثرت بشكل مؤلم بالفضيحة التي أثرتها في محيطها. لم يكن مقبولًا بالنسبة لها أن تسمع أحد أبناء العمومة يقول: «سيمون هي عار الأسرة.»

إن التحولات التي مرت بها أمي أثناء مرضها أثارت في نفسي ندمًا. وسبق لي أن قلت ذلك بالفعل: فبعد أن كانت موهوبة بمزاج قوي ومتوقد، تعطلت وصارت متعبة بسبب زهدها. لقد قررت أن تعيش بمفردها في السرير، ومع ذلك كانت تحتفظ بقلق دائم تجاه الآخرين: فمن صراعاتها وُلد الونام. ووالدي تطابق تمامًا مع شخصيتها الاجتماعية: كانا ينطقان بصوت واحد. وكلماتها الأخيرة: «أنت كسبت قوتك مبكرًا:

وأختك كلفتني غاليًا» – بدموع محبطة. كانت أمي منهمكة في أيديولوجية روحانية؛ ولكن كان لديها شغف حيواني طوال حياتها كان مصدر شجاعتها التي، عندما أدركت وزن جسدها، جعلته أقرب إلى الحقيقة. لقد تخلصت مما هو مبتذل ويخفي الصادق والآسر في داخلها. وعند ذاك شعرتُ بدفء الحنان الذي شوهته الغيرة في كثير من الأحيان، الغيرة التي عبرت عنها بشكل سيئ جداً. لقد وجدتُ بعض الشهادات المؤثرة في أوراقها. فقد وضعت رسالتين جانباً، إحداهما كتبها يسوعي، والأخرى كتبتها صديقة تؤكدان لها أنني سأعود يومًا إلى الله. لقد استنسخت بخط يدها مقطعًا من شامسون، حيث قال في جوهره: لو كنت قابلت في العشرين من عمري شيخًا مرموقًا وحدثني عن نيتشه، وجيد، والحرية، لانفصلت عن منزل الأب. اكتمل هذا الملف بمقال أقتطع من إحدى الصحف: أنقذ جان بول سارتر روحًا. يقول عنه الصحافي ريمي رور – هذا خطأ. بعد عرض مسرحية باريونا في معسكر ستالاغ الثاني عشر د. الألماني. اهتدى طبيب ملحد *[عرضت المسرحية في 24 ديسمبر 1940 في ستالاج الثاني عشر في تريير، حيث كان سارتر سجينًا إبان الحرب العالمية الثانية* وأنا أعلم ما كانت تريده من هذه النصوص: أن تكون مطمئنة إلى ما نسب إلي؛ ولكنها لم تكن لتشعر بالحاجة إلى ذلك لو لم يكن لديها قلق شديد بشأن خلاصي. «بالطبع، أود أن أذهب إلى الجنة: ولكن ليس وحدي، ليس من دون بناتي،» هكذا كتبتْ إلى راهبة شابة.

يحدث أن يتغلب، وهذا نادر جدًا، كل من الحب،

مكتبة ياسمين

والصداقة والرفقة الحميمة على عزلة الموت؛ على الرغم من المظاهر، حتى عندما أمسكتُ بيد أمي، لم أكن معها: كنت أكذب عليها. ولأنها كانت دائمًا ملغزة، فإن هذا السلوك المتعالي كان بغيضًا بالنسبة إلي. لقد كنت شريكة في القدر الذي جعل منها عنيفة. ومع ذلك، في كل خلية من جسدي، كنت أتحد برفضها، وتمردها؛ ولهذا السبب صرعتني هزيمتها. على الرغم من أنني كنت غائبة عندما لفظت أنفاسها الأخيرة – في حين حضرت ثلاث مرات لحظات الألم الأخيرة – رأيت على جانب سريرها موت الرقصات المروعة، متجهمًا ومزمجرًا، موت قصص السهر الذي يطرق الباب، وبيده المنجل، الموت الذي يأتي من مكان آخر، غريباً، فظًا: وجهه وجه أمي بالذات كاشفًا عن فكه بابتسامة غبية عريضة.

«لقد بلغتْ من العمر ما يكفي لتموت.» حزن كبار السن، منفاهم: معظمهم لا يعتقدون أنهم في هذا العمر يعني أن الساعة الأخيرة قد حانت. أنا أيضًا، وحتى بشأن أمي، استخدمت تلك العبارة المبتذلة. لم أفهم كيف يمكن للمرء أن يحزن بصدق على قريب، أو على أحد الأسلاف بلغ من العمر أكثر من سبعين عامًا. وإذا ما التقيت امرأة في الخمسين من عمرها وكانت مثقلة بالأعباء لأنها فقدت أمها للتو، فأظن أنها مصابة بمرض عصبي: كلنا فانون؛ فعند بلوغ الثمانين عامًا يكفي أننا بلغنا من الكبر لنتصنع الموت.

كلا. لا يموت المرء من أجل أن يولد، أو يعيش أو يكبر في السن. نحن نموت من شيء ما. إن سلوك أمي الذي نذرته خلال عمرها إلى نهاية وشيكة لم يخفف من المفاجأة الرهيبة: كانت تعاني

مكتبة ياسمين

من ورم خبيث. وسرطان، وانسداد أحد الأوعية الدموية، واحتقان رئوي: إن الأمر فظ غير متوقع يشبه إيقاف محرك في الفضاء. كانت أمي تشجع على التفاؤل عندما أكدت، وهي مشلولة، تحتضر، على الثمن المطلق لكل لحظة. ولكن عبثها المرير مزق الستارة التي تسكّن الروع من التفاهة اليومية. ليس هناك موت طبيعي: لا شيء يحدث للإنسان بشكل طبيعي أبدًا منذ أن وضع وجوده العالم موضع تساؤل. كل الناس يموتون، لكن موت إنسان يعد حادثًا عرضيًا، حتى لو كان يعرفه ويرضى به، قسوة لا مبرر لها.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook